
الخيط الرفيع
إحسان عبد القدوس
8

شىء اسمه الحب
وشىء اسمه: غريزة التملك
وبين الحب وغريزة التملك خيط
رفيع.. رفيع جدا.. اذا ما تبينته
تكتشف لك الفارق الكبير!

«احسان»

شيء اسمه: الحب..
وشيء اسمه: غريزة التملك..
وبين الحب وغريزة التملك خيط رفيع.. رفيع جدا.. اذا ما تبينته تكشف لك الفارق الكبير!!
ان الحب عاطفة قد تسمو بك دائما الى مرتبة الملائكة..

والتملك غريزة تنحط بك دائما الى مرتبة الحيوان..
الحب يدفعك الى ان تضحى بنفسك فى سبيل من تحب..
وغريزة التملك تدفعك دائما الى ان تضحى بغيرك فى سبيل نفسك..

وعندما تحب تغار لمن تحب.. تغار لسعادته وراحته وسلامته.. والتملك يجعلك تغار لنفسك.. لسعادتك، وراحتك، وسلامتك.. وشهوتك!
الحب عطاء.. سخاء!
والتملك اخذ.. انانية!
ورغم ذلك فان من الصعب ان تتبين الخيط الرفيع الذى يفصل بين الحب وغريزة التملك فان الحب - حب الانسان لا - حب الملائكة - مقرون دائما بالتملك.. فكل من يحب يتمنى ان

يمتلك من يحب، وقد تتحقق امنيته فتكتمل له عناصر الحب، فاذا لم تتحقق امنيته يبقى الحب ناقصا لاحد عناصره، ولكنه يبقى؟

فالتملك عنصر من عناصر الحب..

لكن الحب ليس دائما عنصرا من عناصر التملك، فانك تستطيع ان تمتلك دون ان تحب.. كل ما هنالك ان غريزة التملك قد تشتد بك وتعصف بنفسيتك حتى يخيل اليك انك تحب.

هذا هو الخيط الرفيع..

واني احذر القراء من ان يحاولوا البحث وراء هذا الخيط، أو يتساءل كل رجل منهم ان كانت فتاته تحبه او فقط تحرص على ان تمتلكه، او تتساءل كل فتاة ان كان رجلها يحبها حقيقة ام فقط يتباهى بامتلاكها ليرضى غريزته. ويوم يبحث الجميع وراء الخيط الرفيع ويعم هذا التساؤل، تشقى النفوس، ويتبين ان تسعين فى المائة من الزيجات أو العلاقات التى تبدو سعيدة ليس للحب دخل فيها، انما هى سعادة وهمية تقوم على حرص كل منهما على امتلاك الآخر.. وان كلا منهما على استعداد ليخون الآخر مع حرصه على امتلاكه، فان غريزة التملك لا تحول دون الخيانة بل تدفع إليها.. فانك عندما تمتلك امرأة تسعى لتمتلك ثانية وثالثة، وكذلك المرأة عندما تملك رجلا تسعى لامتلاك ثان وثالث.. تماما كامتلاك المال أو العمارات.

وهذا يفسر لنا لماذا تخون هذه الزوجة المحافظة التى تبدو سعيدة بزوجها وبيتها واولادها.. لماذا تخون زوجها وقد وفر لها الشباب والمركز الاجتماعى وضمن لها المستقبل؟!

ولماذا يخون هذا الفتى فتاته، وقد وفرت له الشباب والجمال وحسده عليها الجميع؟

ولماذا تحرص الزوجة الخائنة على الابقاء على زوجها ويحرص الفتى الخائن على فتاته؟

ثم لماذا يقتل الرجل الخائن امرأته اذا خانته، أو تقتل المرأة الخائنة أجلها اذا خانها.. وكل ذلك باسم الحب، رغم ان الحب يحمل معنى الابقاء على من تحب، واسعاده، ولو على حساب سعادتك وعواطفك؟!

انه الخيط الرفيع..

فالحب هو الذى يحول دون الخيانة.. ودون القتل.. ودون الغيرة المجنونة الحمقاء..

والتملك هو الذى يدفع إلى الخيانة.. والى الهدم.. والى الانانية القاتلة..

وصدقونى عندما احذركم من البحث وراء الخيط الرفيع، فان كل من تتكشف له نفسه ونفوس الناس يشقى بها وبهم..

فقط.. اقرأوا هذه القصة!

«أ...»

(١)

انه لم يكبر ابدا..

كان تلميذا فى السعيدية.. ثم طالبا فى كلية الحقوق.. ثم ملحقا فى مفوضية مصر بسويسرا.. ثم استاذا ودكتورا فى القانون..

ورغم ذلك فهو لم يكبر..

لقد كبرت الاعوام.. وتضاعف عدد الكتب التى قرأها آلاف المرات.. وارتفعت به المناصب.. وازدحم من حوله الاصدقاء.. ولكنه لم يتغير..

لم يتغير فى شكله..

ولم تتغير نظرته الى الحياة..

انه لا يزال يبدو كما كان تلميذا فى المدرسة السعيدية.. نفس الرأس الكبير، والوجه النحيل ذى الجلد الاصفر المشدود.. ونفس الشفتين الرقيقتين الباهتتين، والعينين الواسعتين اللتين تبرقان فى ومضات خاطفة خلف نظارته السميكة.. ونفس القامة القصيرة الضئيلة، واليدين الصغيرتين الناعمتين كأنهما كفا فتاة، لم تسر فيهما بعد حرارة الشباب..

ولو انه وقف امام المرآة لرأى وقفة الزمن به منذ ان كان فى السادسة عشرة من عمره.. بل لرأى ان طراز نظارته لم يتغير منذ ذلك العمر، وان الشعيرات الصفراء الهزيلة المتناثرة التى ثبتت على صفحة وجهه لم تكف لتمنحه مظهر الرجل فى الثلاثين من عمره..

ولكنه لم ينظر ابدا الى المرآة..

كان يقف قبالتها ليمشط شعره، أو ليربط رباط عنقه، ولكنه لم ينظر إليها بعينين واعيتين.. ولم يكن فى حاجة الى النظر اليها.. لم يكن فى حاجة الى ان يرى وجهه وقامته، الا بقدر حاجته الى الوقوف امام المصور مرة أو مرتين فى العمر ليلتقط له صورة فوتوغرافية كلما اضطره عمله الى استخراج بطاقة رسمية أو جواز سفر.

لم يكن شكله ومظهره يهمانه فى شىء..

ولم يكن شكله ومظهره يهمان الناس فى شىء..

ثم انه لم يكن منفر الشكل أو المظهر، كان وجهه من هذا النوع الهادىء الذى ترتاح إليه، كوجه مريض فى دور النقاهة اضفى عليه الضعف نوعا من السكينة والاستسلام والايمان، وكان مظهره العام يوحى اليك بالثقة والاطمئنان، هذا الصنف من الناس الذى تقبل على استصحابه الى بيتك ورفع التكليف بينك وبينه دون ان تخشى منه على زوجتك أو شقيقتك.. أو تقبل على الافضاء إليه باسرارك وتروى له مغامراتك النسائية دون ان تخشى منه ان يفسد احدى مغامراتك، وكأنه اضعف من ان يقف لك نداء، واضعف من ان يكون رجلا كاملا فى معركة الحياة.. كل ما كان يهمه ويهم الناس هو علمه.

وقد قضى عمره كله يستوعب هذا العلم ويحشو به رأسه، ومنذ ان وقع فى يده أول كتاب وهو لم يرفع عينيه عن الكتب.

وكان الأول دائما بين اقرانه، ولكنه لم يكتف ابدا بمقررات الدراسة.. كان وهو فى المدرسة السعيدية يقرأ مقررات الحقوق، وكان وهو فى الحقوق يقرأ مقررات الدكتوراه.. كتب.. عشرات من الكتب..

وكانت قراءته كلها علمية جافة.. لم يقرأ ابدا قصة، أو ديوانا من الشعر، غاية ما كان يصل إليه عندما يريد ان يريح رأسه هو ان يقرأ كتابا فى تاريخ الاقتصاد أو فى فلسفة نيتشه!

كانت هذه هى دنياه.. دنيا مسطورة فى كتب، وكل ما هو خارج هذه السطور لم يكن يحس به.. بل لم يكن له احساس بالجمال.. حتى جمال الطبيعة.. كان يمر بشروق الشمس وغروبها دون ان يحس بشروق أو غروب، وكان يمر بالريف والحضر دون ان يحس بريف أو بحضر، بل عندما سافر الى سويسرا ورأى جمال الله فوق عروش الجبال، لم يحس بشيء.. وربما رفع عينيه الى هذه القمم دون ان يرى فيها شيئا الا انها حدود سياسية بين بلد وبلد، أو ظواهر طبيعية لها اسبابها الجيولوجية!

كل ما كان يحس به من جمال، هو جمال المنطق فى كتب القانون، أو جمال البحث فى كتب الاقتصاد!

ولم تكن فى حياته امرأة..

لم تكن له امرأة حتى فى خياله، ولم تخطر له حتى فى احلامه..

بل انه لم ير فى حياته امرأة، كما يرى الرجل المرأة.. لقد التقى بالكثيرات منهن.. التقى بنساء فى الطريق، والتقى بشقيقات وزوجات بعض اصدقائه، وكانت الطالبات فى كلية الحقوق يسعين وراءه ليستعن بعلمه على جهلهن.. ولكنه لم ير واحدة من كل هؤلاء.. كان يعرف ان هذه هى فلانة، والاخرى هى شقيقة فلان.. ولكنك لو سألته عن لون عينى «فلانة» لما اجاب، ولو سألته عن رأيه فى قوام «علانة» لما افتى.. لم يكن اعمى، ولكنه كان ينظر اليهن بعينين غير واعيتين.. عينين لم تتعودا ان تلتقطا شيئا خارج الكتب!

كان كتلة من العظام الجافة الجامدة، لا تتحرك فيه شهوة، ولا يختلج منه عصب.. حتى الشهوة الى الطعام لم تتحرك فيه، فلم يشته يوما طعاما أو شرابا، انما كان يقبل على مائدة الطعام كاقباله على مائدة معمل كيمائى لاجراء عملية كيمائية لابد منها ان تنتهى الى عدة تفاعلات فيسيولوجية!

كان يعيش فى صحراء، رمالها من كلمات الكتب، ورغم ذلك استطاع ان ينبت ويزدهر فيها، كما ينبت نبات الصبار.. جاف خشن ولكنه يستطيع ان يعتصر الرمال ليستقطر منها حياة تكسبه اخضرارا تسرى فيه قطرات من الروح.. وعود الصبار لا يعى جفاف الصحراء ولا يحس بوحشتها!

وقد نال عود الصبار هذا احترام الجميع واطمئنانهم إليه..

كان زملاؤه - سواء وهو طالب أو بعد تخرجه - لا يشركونه فى لهوهم ومغامراتهم، ولكنهم كانوا يلجأون إليه فى عملهم ودرسهم.. وكان دائما اقرب الى الآباء منه إلى الابناء، فكان الآباء يستريحون إلى جلساته، وكان يستريح إليهم، وكانوا

يدعـونه دائمـا بلقب «استـاذ» حـتى وهو لا يزال طالبـا فى الجامعة فى الثامنة عشرة من عمره.. وربما تمناه بعضهم زوجا لابنته بعد ان تخرج، فقد كان مثالا للخلق الكريم والسيرة النظيفة، وكان مثالا للزوج كما تتصوره الطبقة الوسطى.. لا يدخن، ولا يشرب، ولا يسهر، ولا يتردد على مقهى، وكان ينتظره فوق ذلك مستقبل عريض مضمون، فان تفوقه وذكاءه العلمى اشتهر، حتى اصبح اساطين القانون وكبار السياسيين يعهدون إليه ببعض ما يحتاجون من ابحاث قانونية..

وربما حاولت بعض الامهات ان يغزلن حوله شبكة الزواج فيدفعن بناتهن إلى الجلوس إليه، وتحاول البنات ان يخرجنه عن حديث العلم والقانون والسياسة.. وربما تعمدت احداهن ان تضغط على يده، أو تلصق ذراعها بذراعه أو تقترب بساقها من ساقه، أو تكسو وجهه بانفاسها، أو تذيقه صنفا من الطعام طهو يديها.. الخ، ولكنه كان عن جميع هذه المحاولات فى غباء تام..

وظل كما هو.. لا تعى عيناه صورة امرأة، ولا يتحرك منه عصب..

وحدث ذات يوم..

وكان قد عاد من سويسرا منقولا الى ديوان وزارة الخارجية.

حدث ان ذهب الى بنك «باركليز» ليسوى بعض حسابه.. ووقف امام القضبان الرفيعة الصفراء ورفع عينيه فلم يجد الموظف المختص.. وقبل ان يخفض عينيه اصطدمتا بوجه آخر

يجلس بعيدا خلف القضبان الى مائدة صغيرة تحمل آله كاتبة..

وخفض عينيه..

ولكنه عاد ورفعهما بسرعة وكأنه مر بسطر من كتاب يحتاج الى قراءته مرة اخرى!

انها فتاة.. موظفة من موظفات البنك..

وربما تعلقت عيناه بها لحظة أو لحظتين.. ولكنه لم يرها.. لم ير لون شعرها، أو شكل عينيها، أو رسم شفتيها.. انما رأى شيئا مهزوزا تبدو من خلاله صورة فتاة لا معالم لها.

كان كأعمى يفتح عينيه على النور لأول مرة!

ولم يرفع إليها عينيه مرة اخرى.. وانما ظل يغلبه احساسه بانه رأى شيئا وان هذا الشيء هو فتاة، وانه يريد ان يراها مرة اخرى وان يتحقق من معالمها..

وربما حاول ان يرفع عينيه.. ولكنه لم يستطع.. لم يمنعه حياؤه أو خجله، وانما منعه احساس عجيب لا يستطيع تفسير كنهه.. احساس دب فى كيانه كله، وروى عظامه الجافة حتى سرت البرودة فى اطرافه، وخيل إليه انه يرتعش.. وخيل إليه ان الناس جميعا يلمحون رعشته، وانه لو رفع عينيه مرة اخرى الى هذه الفتاة، لتغامز الجميع عليه، وربما ضجوا بالضحك.

هل كان هذا الاحساس العنيف من اجل فتاة لم يتبين ملامحها بعد؟!

ان احساس البشر كعدسات آلات التصوير.. بعضها يفتح ويغلق باستمرار ليلتقط ما حوله من صور الجمال والقبح فتتأثر به النفس.. وبعضها يفتح ويغلق بالمحاولة والحاح

الظروف المحيطة بالنفس.. وبعضها يظل مغلقا امدا طويلا لا تتأثر خلاله النفس بصور الحياة ولا تلتقط منها شيئا، ثم فجأة.. وبدافع غير ارادى.. وبلا سبب.. تحدث هزة نفسية نتيجة تفاعلات قديمة العهد، كما تحدث ثورة البراكين أو الهزات الارضية، وفى هذه الحالة تتفتح عدسة الاحساس من تلقاء نفسها، وتلتقط أول صورة تمر بها..

وكان احساسه من هذا النوع الاخير..

وكانت هذه الفتاة هى التى مرت بالصدفة امام العدسة فى لحظة انفتاحها فالتقطت لها هذه الصورة المهزوزة.

وجاء الموظف المختص، وسوى بعض حسابه، ثم طلب إليه ان يعود فى الغد..

ولا يدرى لماذا استراح عندما علم انه سيعود الى البنك غدا.

وقد خرج وكل ما فى رأسه انه سيعود غدا.. لم يفكر فى الفتاة، ولم يحاول بينه وبين نفسه ان يستعيد صورتها أو يحاول تبين ملامحها خلال الصورة المهزوزة المنطبعة فى ذاكرته.. ولكنه كان مطمئنا لانه سيعود غدا.. وكان منشرح الصدر لسبب لا يدريه..

وعاد خلال يومه وليله الى كتبه.. واخذ يقرأ بروح اقل جفافا، واخذت سطور المنطق الجامد تبتسم امامه حتى انه وجد فيها ما يدعو إلى ابتسامة خفيفة تطوف بشفتيه، وتعليق ساخر يتجاوب فى نفسه على آراء الاستاذ بيفردج، صاحب النظريات الاقتصادية المعروفة!

وكان يرفع رأسه بين الحين والحين من بين صفحات

الكتاب، ليذكر ان حسابه في البنك لم يسوّ بعد، وان عليه ان يعود غدا..

ولم يكن حسابه يستحق كل هذا الاهتمام، فهو لم يشغل باله قط بأمر ثروته التى لم تتجاوز قط حدود مرتبه الحكومى، ولم تكن عودته إلى البنك تستحق ان تشغل وقتا من تفكيره، وهو الذى قضى حياته كلها وليس له فكر الا فيما يقرأه ويعده من ابحاث.

ولكنه لم يحاول ان يفسر سر هذا الاهتمام.. وانما ترك نفسه منساقا وراء نشوة هادئة تبعثها فكرة عودته إلى البنك غدا.

وقد عاد..

ووقف امام الموظف المختص.. ولأول مرة لم يستطع ان يفهم شيئا مما يقوله الموظف عما تستلزمه اجراءات تحويل النقود من سويسرا إلى مصر.. بل انه لم يسمع ما يقول الموظف.. فقد كانت اذناه منصرفتين الى صوت الآلة الكاتبة التى تدق خلف القضبان الرفيعة الصفراء.. وكانت عيناه ترتجفان خلف نظارته السميكة تحاولان ان ترتفعا لتنظرا، فتشدهما رهبة لا يدرى لها سببا.

وكما يتسلل الطفل بيده إلى صندوق الكعك وهو يعتقد انه يرتكب اثما كبيرا يحتاج إلى جرأة والى مقاومة النفس الهيابة.. اخذ يقاوم نفسه وهو يتسلل بعينيه حتى استطاع ان يرفعهما ويبحث بهما وراء القضبان.

ولمحها فى لحظة خاطفة..

وعاد يخفض عينيه فى سرعة، وكأنه خاف ان يضبطه

الموظف الواقف امامه فينادى البوليس!

وفى هذه اللحظة استطاع ان يتبين بعض ملامحها.

عرف انها سمراء!

وعاد إلى البنك مرة ثالثة.. وعرف فى لمحة اخرى ان شعرها كالليل الحزين تتدلى منه خصلة فوق عينيها كمنديل انيق اسود يمسح عنهما الدموع.

وعاد مرة رابعة.. وعرف ان عينيها فى لون العسل، وانهما عينان عصبيتان لا تستقران من تحت أهدابهما الطويلة.. وان شفتها السفلى اغلظ قليلا من شفتها العليا، وان كلا منهما تحتضن الاخرى لترسما فما هادئا، فى هدوئه كبر وانفه وازدراء للدنيا.. وعرف انها لا تبتسم، ولا تتشاغل عن عملها، ولا تجامل احدا من زملائها الموظفين وان على وجهها دائما سحابة من التفكير العميق، وربما كان فى حياتها شىء تتألم من اجله.

وعاد مرة اخرى.. واخرى..

وعندما سوّى حسابه، بدأ يختلق الاسباب ليعود.. كان يعود ليسحب بعض النقود، ثم يعود ليودع نفس النقود، ثم يعود مرة ثالثة ليسحبها مرة اخرى..

وكانت عيناه قد تعودتا التسلل إليها.. تعود الطفل ان يمد يده إلى صندوق الكعك دون ان يخشى رقيبا. فكان يبحث عنها بعينيه بمجرد ان يتخطى الباب الخارجى، ثم يقف امام القضبان الرفيعة الصفراء ويرفع هاتين العينين اليها فى لمحات خاطفة وفى فترات متباعدة.

وكان قد عرف خلال هذه الفترة انه يعود من اجلها.. ولكنه

لم يدر لماذا يعود.. لم يستطع ان يصارح نفسه بانه يحبها أو انه يريدها.. كل ما كان يعرفه انه يريد ان يعود ليراها ويشبع شهوة عنيفة تنحصر فى عينيه، ولا تتعدى عينيه ابدا!

وتبدلت حياته..

أصبحت الصفحات تمر امام عينيه فى بطء شديد.. وكانت السطور يختلط بعضها فى بعض احيانا لترسم هذا الوجه الاسمر كلون اعواد القمح قبل الحصاد، وترسم هذا الليل الحزين الذى تتدلى منه خصلة كمنديل اسود انيق، وهذا الفم الهادىء المتكبر الذى يزدرى الدنيا.

وتفتح احساسه بالجمال.. بدأ يحس بالريف والحضر، والشروق والغروب، ويلتقط فى طريقه مناظر الناس فى سعيهم وفى لهوهم.. وبدأ يرى وجوه الفتيات اللاتى التقى بهن من قبل ولم يلتقط صورهن.. بنات الجيران وشقيقات وزوجات الاصدقاء.. ولكن لم تعلق منهن فى ذهنه الا صورة واحدة.. صورة الفتاة السمراء التى تجلس إلى الآلة الكاتبة خلف القضبان الرفيعة الصفراء فى بنك باركليز.

ولم يكن قد جرى بينه وبينها شىء سوى هذه اللمحات الخاطفة التى ترتفع بها عيناه.

كل ما حدث انه ذهب يوما فلم يجد الموظف المختص فى مكانه، فوقف فى انتظاره - وربما حمد الله لغيابه - وطال انتظاره وهو لا يزال يعلق عينيه بها.. وفجأة رفعت عينيها إليه وابتسمت ابتسامة خفيفة ثم قامت نحوه وحيته بالفرنسية:

بونجور بروفسور!

وتناولت منه «الشيك» وهو يدفعه إليها بيد مرتعشة دون ان

تتحرك شفتاه ليرد التحية، وذهبت به الى الموظف ليتولى امره.

وقد ارتجف يومها ساعة ان تقدمت إليه، واشتد اصفرار جلده المشدود فوق عظام وجهه، واضطربت جفونه خلف زجاج نظارته.. وخيل إليه انها جاءت تؤنبه لوقاحته وتجرئه عليها بنظراته..

وعندما سمعها تحييه وتتناول منه «الشيك» دبت في صدره نشوة عقدت لسانه وخيل إليه انها المرة الأولى التي يسمع فيها صوت امرأة، وانه لم يصبح «بروفسور» الا عندما نادته بهذا اللقب!

وخرج من البنك وهو يكاد يطير غرورا.

انها تعرفه..

وتعرف انه «بروفسور»..

انه يريد ان يضحك..

بل ان خطواته تكاد تكون رقصا..

ولم يدر بخلده ان تردده على البنك لهذه الاسباب التافهة التي يختلقها قد جعله معروفا لدى جميع الموظفين، وان اسمه ربما كان قد مر عليها وهي تعيد تسجيل حساباته على الآلة الكاتبة..

لم يدر بخلده شيء من هذا.. كل ما كان يعنيه انها تعرفه.. ولابد انها تعرف اسمه، مادامت تعرف انه «بروفسور».. وكان سعيدا.. سعيدا الى حد انه بدأ يمل حديث القانون والسياسة، وبدأ يمل صحبة الآباء ويسعى إلى صحبة الابناء ويشجعهم على احاديث الحب ومغامرات الشباب.

لقد اكتشف اخيرا انه شاب، وانه فى السابعة والعشرين من عمره، وانه يحب الموسيقى ويستطيع ان يقرأ كتابا فى الفن، وان يقرأ المجلات الاسبوعية، ويتساءل من هى هذه التى يكتب عنها فى صفحة السينما..

واستقبل اصدقاؤه الشبان هذا التبدل منه فى حرص وشك كبير.. ولم يصدقوا انه يستطيع ان يكون واحدا منهم.. له مثل مغامراتهم ويلهو مثل لهوهم.. فكانوا يقتصدون امامه فى احاديث النساء، وكانوا ينتقون وهو بينهم فكاهات اقل ابتذالا مما تعودوا ان يتبادلوه بين بعضهم وبعض.

وهو من جانبه لم يرو شيئا عن مغامراته الكبرى.. ولم يلمح اليها بكلمة.. كان يحتفظ بها فى صدره ككنز البخيل..

وذهب يوما..

واطل بعينيه خلف القضبان الرفيعة الصفراء.. فلم يرها وانتظر فترة فلم تعد..

وعاد فى اليوم التالى.. ولم تكن هناك..

وعاد فى اليوم الثالث.. فوجد فتاة اخرى مكانها..

واضطربت ايامه ولياليه.. واختفت ابتسامته، وكره صحبة الآباء والابناء، وبدأ يغيب الساعات الطوال وراء خيال لا نهاية له.. اين هى؟ ماذا جرى لها؟ هل هى مريضة؟ هل تزوجت؟

وكانت صورتها المطبعة فى ذهنه قبل ان تختفى من ايامه، محدودة بهذا الوجه الاسمر الحزين الذى يراه فوق الآلة الكاتبة.. ولكنها بعد ان اختفت انطلق خياله وراء هذه الصورة، وبدأ فى الليالى الطويلة المسهدة التى تمر به يلمح عنقها، ثم يبحث عن نهديها، ثم يقيس بعين الوهم خصرها، ثم ينزل

احيانا حتى يصل إلى ساقيها.

وبدأ يراها في اضطرابه العصبي ضاحكة عابثة.. وبدأ يراها مستلقية بين ذراعيه.. وبدأ يسمعها باذن اليأس تهمس وتناديه وتناجيه.. وبدأ خلال هذه الفترات التي تنتابه يحس بشيء يتحرك فوق عظامه.. يحس ان له خلايا تنتفض ودما يفور..

انه لم يعد يريدها ليرفع إليها عينيه في شبه عبادة..

بل أصبح يريدها امرأة.. امرأة تثور من اجلها اعصابه حتى تمزق الثورة عنها الثوب..

وكاد خياله المريض يقتله..

كان اذا ما وضع كفه على زجاج مكتبه وتحسس صفحته الملساء خيل إليه أنه يتحسس كتفها أو قطعة من لحمها.. ثم يستبد به الخيال حتى تتجسم امامه شفتاها، ويحس بهما تقتربان منه بينما الشفة السفلى ترتعش في نداء حبيب، فيميل إليها.. ويظل يميل حتى يقع بشفتيه فوق زجاج المكتب البارد ويغيب فوقه في وهم من القبل.

ويستبد به الخيال أكثر حتى يلهث، ويمزق اعصابه بيديه.. ثم يقع محطما باهت اللون في شبه غيبوبة..

لقد منح نفسه لامرأة. لأول مرة في حياته وهو في السابعة والعشرين من عمره..

وكانت امرأة من خيال..

ولكنه لم يكتف بخياله.. لم ييأس!

ودار تدفعه قوة من الوهم يبحث عنها..

كان يطوف الشوارع التجارية طول يومه، ويحملق في وجه كل من تمر به، فاذا ما فاتته واحدة عاد إليها وحملق فيها بوقاحة يحسد عليها..

واختار لنفسه مقهى في تقاطع الطرق يستطيع ان يستوعب فيه بعينيه أكبر عدد من الفتيات وخصوصا فتيات بنك باركليز..

ولم يعد يقرأ..

ولم يعد يبحث..

هكذا انتهى.. إلى التسكع في الطرقات والجلوس في المقاهي..

لقد تجمعت الدنيا كلها امامه في لمحة تلتقي فيها عيناه بها.. لم يعد يشعر بأمسه أو بيومه أو بغده.. فقط يريد ان يراها.. نظرة واحدة.. لمحة..

(٢)

..لم يلحظ احد من اصدقائه هذا التبدل الذى ألم به، أو على الاقل لم يثر بينهم اهتماما..

كان وجهه يزداد اصفرارا، ولكنهم عرفوه دائما اصفر الوجه..

وكانت عيناه تزدادان بعدا عن الدنيا فى نظرات ساهمة شاردة، ولكنهم عرفوه دائما بعينين ساهمتين غير واعيتين لا تلتقطان شيئا خارج الكتب.

وربما التقى به بعضهم وهو جالس على مقهى أو متسكع فى الشوارع التجارية، فلا يدور فى خلد واحد منهم انه فى جلوسه وتسكعه انما يبحث عن امرأة ضاعت منه..

وربما كان كل ما لاحظوه انه ازداد نفورا منهم وابتعادا عنهم، وان شفتيه الرقيقتين الباهتتين اصبحتا أكثر ضنا بالكلام، سواء كان كلاما فى القانون أو كلاما خارج دائرة القانون، ولكنهم اخذوا كل هذه المظاهر على انها من شطحات العلماء وشذوذهم.

لم يكن احد يعلم ان هناك امرأة قد طرقت حياته..

ولم يكن احد يعلم شيئا عن هذه الليالى الطويلة المسهدة التى يمزق فيها اعصابه بيديه، حتى يقع صريعا لأوهامه المريضة.

كان فى نظر الناس لا يزال عالما.. انسانا ليس له سوى رأس يحشوه بسطور الكتب..

ولكنه كان قد ترك الكتب منذ ليال طويلة.. وقد حاول فى أول الأمر ان يظل ملتصقا بها، وان يعلق عينيه بسطورها.. فكان كلما فتح كتابا ارتسم فوق صفحته الوجه الاسمر الحزين وخصلة الشعر التى تتدلى فوق العينين كمنديل اسود رقيق يجفف عنهما الدموع.. إلى ان يئس.. يئس من ان يتلهى بعلمه عن خياله.. وأصبح لا يفتح كتابا الا ليرى على صفحته صورة وهمه، ثم أصبح يرى هذه الصورة دون ان يحتاج إلى فتح الكتاب..

ورغم ذلك فقد ظل محتفظا بثقة رؤسائه فى عمله الحكومى، وظل محتفظا بثقة رجال «اتحاد الصناعات» الذين كانوا يلجأون إليه ليعد لهم ابحاثهم.. وربما لاحظوا عليه انه اصبح اقل اقبالا وتفرغا لعمله، واقل دقة فى تحديد مواعيد تقديم مذكراته، ولكن سمعته العلمية والمجهود الدراسى العنيف الذى تعود ان يبذله طوال حياته، كانا يصفحان دائما عن كل اهمال يقع منه..

واتصل به اتحاد الصناعات يوما وطلب إليه ان يعد بحثا اقتصاديا عن شركة جديدة ينشئها الاقتصادى الكبير «عبده بك»

ثم اتصل به عبده بك نفسه وحدد له موعدا ليحادثه فى امر

هذه الشركة الجديدة قبل ان يعد بحثه عنها.. وكان الموعد فى ميدان السباق!

ولم يعجب ان يكون الموعد فى ميدان السباق، فقد كانت هذه هى عادة عبده بك.

كان من عادة الاقتصادى الكبير ألا يقابل العلماء إلا فى اوقات فراغه.. فهو يعلم قيمة الابحاث التى يضعونها، ويعلم انها اتفه من ان يقتطع لها جزءا من اوقات عمله فى مكتبه.. انها ابحاث ـ مهما بذل فيها من جهد، ومهما بلغت من دقة ـ لا تفيده فى شيء الا نشرها فى الصحف كاعلانات يموه بها على الناس، أو يرفقها مع مطالبه التى يبعث بها إلى الحكومة، حتى يستعين بها اصدقاؤه الوزراء فى استكمال الشكليات القانونية والمظهر الرسمى..

وذهب إلى نادى السباق..

وصعد الدرج المؤدى إلى «لوج» عبده بك..

كان منهكا مفككا كعادته فى الأيام الأخيرة، تكاد عظام وجهه تمزق هذا الجلد الاصفر الرقيق المشدود فوقها.

وسار فى الممر الطويل المحاذى لصف «الالواج» وعيناه بين قدميه، لا يريد ان يرى احدا ولا يريد ان يراه احد..

وفجأة رفع عينيه.. وشهق.. ثم تسمرت قدماه..

انها هى..

انها هنا جالسة فى نفس «اللوج» بجانب عبده بك..

واحس ببرودة عنيفة تسرى فى اوصاله وكأنه غرق فى بحر من الثلج، واحس باطرافه ترتعش حتى اضطر ان يستند على

الحاجز الحديدى حتى لا يقع، واحس ان كل شيء فيه قد توقف وكأنه صعق تحت تياركهربائى.. عقله.. قلبه.. اعصابه.. كل ذلك فقده فى لحظة، فلم يستطع ان يفكر، ولم يستطع ان يتنفس، ولم يستطع ان يحس شيئا.. بل لم يستطع ان يسائل نفسه هل يتقدم أم يعود..

تسمر فى مكانه كوتد جاف تخلف عن مخيم القافلة.. ولم ينتبه الا عندما سمع بأذن غير منتبهة صوت عبده بك:

اتفضل يا استاذ!!

ونقل قدميه المرتعشتين وكأنهما قدما انسان صناعى يدار بالكهرباء..

ونظر إليه عبده بك قائلا وهو ينقل سيجاره الضخم الى الجانب الآخر من شفتيه:

ماذا بك.. هل انت مريض؟

لا.. فقط متعب..

ولم ينظر إليها، ولكنه احس بها تنظر إليه، واحس بعينيها مسلطتين عليه، بل ربما كانت ايضا تبتسم هذه الابتسامة الخفيفة التى حيته بها مرة.. ولكنه لم ينظر إليها ولم يدر إليها رأسه، وظل ينظر فى الفضاء الذى يشغل بعضه عبده بك، إلى ان سمع صوته مرة اخرى وهو يقدمه إليها:

الآنسة يولند..

ولم يستطع ان يرفع ذراعه من جانبه ليمد لها يده، واكتفى بان ادار لها رأسه، وانحنى بها محييا..

وسمعها تحييه:

بونسوار بروفسور..

انها لا تزال تذكره..

ولا تزال تذكر انه «بروفسور»..

وكان قد نسى فى لياليه الطويلة المسهدة انه «بروفسور» نسى علمه ونسى مكانته بين العلماء، ونسى هذا المظهر الجاف الرزين المحترم الذى كان يتصف به.. وقد تذكر الآن.. تذكر انه«بروفسور» عندما نادته بهذا اللقب.. فحاول ان يشد ظهره الذى قوضه الانهاك، وحاول ان يرفع رأسه الذى أذله الخيال المريض، وحاول أن ينفخ الروح فى جسده الهزيل الذى أصبح كصندوق فارغ..

وجلس بجانب عبده بك..

ثم تسلل بعينيه من تحت نظارته، وهو يقاوم نفسه الهيابة، وحتى رفعهما إليها، فاذا به يلتقى بعينيها وهى لا تزال تنظر إليه.. فارتد بعينيه عنها سريعا وقد احتقن وجهه واكتسى بحمرة لم تطف ابدا بوجنتيه الا احتقانا..

وكانت لمحة.. لمحة واحدة خيل إليه انه عاش عمره كله فى انتظارها.. وقد رأى خلالها ابتسامتها الخفيفة التى تطوف بشفتيها كطيف عابر، ورأى عينيها القلقتين المضطربتين تحت اهدابها الطويلة، ورأى شعرها الاسود كالليل تطل منه فوق جبينها خصلة كأنها منديل اسود انيق يمسح الدموع عن عينيها..

انها لم تتغير..

انها هى نفسها كما كان يراها فى بنك باركليز وراء القضبان الرفيعة الصفراء، جالسة إلى الآلة الكاتبة..

ولكن لا.. هناك شيء تغير..

شيء لم يلمحه بعد.. ولكنه يحس به..

وبدأ شوط السباق..

والتفت عبده بك والفتاة الى إلحلبة وفي يد كل منهما منظار معظم.. واحس انه أصبح الآن حرا ينظر إليها كما يشاء ويشرب منها بعينيه حتى يروى عظامه الجافة، دون ان يخشى رقيبا..

وقد نظر إليها.. وهامت عيناه تطوف بها، وتتمسح فى وجنتيها، وترقد بين شفتيها، وتندس بين خيوط شعرها، ثم تقبل اناملها، وتسجد تحت قدميها..

كانت عينين مجنونتين جائعتين استبد بهما الجوع والحرمان.

واستراح قليلا، أو استراح شوقه اليها..

ثم دار بعينيه يبحث عن الشيء الذى تغير فيها..

ان الاصباغ فوق وجهها قد ثقلت.. ربما!

ان شعرها لم يعد فطريا كما كان، فيد الصانع تبدو فى تصفيفه.. ربما ايضا!

وثوبها ليس من البساطة التى تتميز بها علاملات البنوك

وهذا الخاتم الذهبى فى اصبعها، هذا السوار فى معصمها، وهذا القرط الثمين فى اذنيها.. و..

وفجأة، وفى هذه اللحظة فقط تذكر انها تجلس بجانب عبده بك، وفى نفس اللوج، وانهما يتحادثان كصديقين حميمين..

.واحس بوخزة فى جنبه، كادت تنتزع صرخة من بين

شفتيه.

والتفت الى عبده بك بعينين تبرقان غضبا.. ثم عاد يلتفت إليها بنفس العينين الغاضبتين.

ماذا جمعهما؟

هل انتقلت من البنك لتعمل فى مكتبه؟

وهل يصحب عبده بك كل فتاة تعمل فى مكتبه إلى ميدان السباق؟

لم لا.. انه هو شخصيا قد صحب عبده بك فى ميدان السباق عندما بدأ يعمل له ويعد له بحثا؟

وهذه الاصباغ الثقيلة.. هل هى شروط العمل فى مكتب عبده بك؟

لم لا ايضا.. انه هو شخصيا اعتاد ان يلبس حلته الجميلة واعتاد اختيار رباط عنق جميل كلما ذهب لمقابلة عبده بك وامثال عبده بك من رجال الشركات!

ولكن هذا الخاتم، وهذا السوار، وهذا القرط. ان عبده لم يعطه خاتما ولم يمنحه ساعة - مثلا - عندما عمل معه فى المرات السابقة..

اذن..

لقد اشتراها عبده..

اشتراها كما اشتراه.. ولكنه اشترى منه العلم والبحث.

اما هى فليس لديها علم ولا بحث.. ليس لها الا وجه وجسد!

واحس بوخزة اخرى فى جنبه.. وكادت صرخة اخرى تفلت

من بين شفتيه.

هل هي من هذا النوع؟

هل تعذب كل هذه الايام والليالي من اجل فتاة تبيع نفسها لعجوز اصلع بدين ثقيل الدم كعبده بك؟

اذن فلا امل له فيها..

لا امل حتى في ان يشتريها يوما كما اشتراها هذا الرجل، فلابد انها اطلعت على حسابه في البنك عندما كانت تشتغل هناك، واطلعت على حساب عبده بك، واختارت بينهما.. بل لم يكن امامها ما يوجب الخيار..

ولأول مرة يحس انه فقير..

لقد التقى في حياته بكثير من اصحاب الملايين، والتقى بزملاء له من موظفي وزارة الخارجية من ابناء الثراء، ولكنه لم يشعر بينهم ابدا بفقره، لانه لم يطمع ابدا في شيء لا تستطيع موارده المالية ان توفره له..

لم يشعر ابدا بالفقر الا اليوم.. الا هذه الساعة.. عندما عرف ان احلامه التي عذبته واضنته وانهكت قواه، يستطيع غيره ان يحققها لانه يستطيع ان يدفع ثمنها..

ولأول مرة يحس بالحقد..

لقد عاش حياته كلها لا يحس بالحقد على احد أو على شيء.. كان الناس جميعهم والاشياء جميعها تقف خارج دنياه التي بناها لنفسه من سطور الكتب.. كان هؤلاء الناس وهذه الاشياء ابعد من ان تصل إليه أو تحرك فيه عاطفة، ولم يكن لها قيمة في نظره الا انها مواضيع تدور حولها وحول حياتها ابحاث العلماء امثاله..

ولكنه اليوم - ولأول مرة - يحس بالحقد على مثل هذا الرجل البدين الاصلع الثقيل الدم الذى يجلس قباله..

وكان عبده بك يحدثه عن موضوع الشركة وهو لا يزال يتابع الخيل بمنظاره المعظم.. ولم يكن يستمع له ولم يحاول ان يستمع.. واحس انه كان غبيا ساذجا عندما استمع إليه وإلى امثاله من قبل..

ماذا يقول هذا الرجل؟

لا شيء.. عملية اخرى يثرى من ورائها..

وما نصيبه هو من هذه العملية.. لا شيء سوى بضعة جنيهات يتناولها على استحياء وكأنه يتلقى احسانا..

وأحس بدائرة حقده تتسع.. انه لا يحقد فقط على عبده بك بل يحقد على جميع اصحاب الشركات الذين باع لهم ابحاثه ومذكراته الاقتصادية والقانونية.. بل انه يحقد ايضا على هذه الابحاث والمذكرات، ويحس بشيء كالندم على هذه الليالى الطويلة التى قضاها فى اعدادها، ويحس شيئا كأنات الضمير بدأت تتململ فى صدره وتعصر قلبه كلما تصور انه وهب علمه وعصارة رأسه ليزيد بهما ثروة عبده بك.. ولا شيء آخر!

وفجأة ارتفعت ضحكة ناعمة فى وجهه..

ورفع رأسه، فاصطدمت عيناه بها وقد ادارت رأسها إليه، ووجهت منظارها المعظم الى وجهه، واستغرقت فى الضحك..

ضحكت كثيرا..

كانت فى شبه نوبة عصبية، حتى لم تستطع ان تتوقف عن الضحك، ولم تستطع ان ترفع المنظار المعظم عن عينيها، الى ان سقط من يدها ليكشف عن الدموع التى اثارتها نوبة

الضحك..

وقالت فى كلمات متقطعة، وهى لم تستطع بعد ان تتمالك اعصابها، أو تتوقف عن الضحك:

آسفة.. آسفة جدا.. ان وجهك من خلف المنظار المعظم عجيب.. عجيب جدا.. آسفة مرة اخرى!

ومدت يدها ووضعتها فوق يده، وكأنها تؤكد له اسفها..

ولم يشعر بيدها فوق يده.. ولم يفهم شيئا مما قالته.. ولم يفهم لماذا ضحكت كل هذا الضحك، ولماذا تعتذر له كل هذا الاعتذار.. ولم يفهم ايضا لماذا شاركها عبده بك بعض هذا الضحك وهو يحاول ان يخفى ضحكه.. لم يفهم شيئا.. وتقلصت عضلات وجهه فى خطوط ترسم الغباء والدهشة والحيرة، وانفرجت شفتاه عن معنى لا يصلح ان يكون ابتساما، ولا غضبا ولا تأهبا لبكاء..

فقط احس انه يريد ان يبتعد.. يريد ان يخرج من هنا.. يريد ان يخلو بنفسه ليتفهم كل هذه الاحاسيس الجديدة العجيبة التي تعصف به.

وقام ينصرف..

ولم يمانع عبده بك، ومد له كفه الغليظة قائلا:

سأراك قريبا..

أما يولند، فقد اراد ان يحييها مودعا باحناء رأسه، ولكنها مدت له يدها، ثم ابقت كفه فى كفها فترة، وقالت وفى صوتها رنة الاسف، وفى عينيها بطاقة اعتذار رقيقة:

هل اغضبتك؟

واجاب فى بله:

اغضبتنى!! لماذا؟

قالت ورنة الاسف لا تزال فى صوتها، وكفه لا تزال فى كفها، وهى تربت عليها بيدها الاخرى وكأنه طفل عزيز:

انى اعتذر

وسحب كفه من كفها، وقال:

لا شيء يوجب الاعتذار..

ثم انصرف..

وترك رأسه يسقط بين قدميه وهو يسير الى خارج ميدان السباق، وقد بدأ يحاسب نفسه.

انه يعرف الآن ان اسمها: يولند، ويعرف انها صديقة لعبده بك ويعرف ان عبده اشتراها.. اشترى وجهها وجسدها.. وانه يدللها باسم: يوللى!

ولكنها لم تكن فى هذه الساعة محور تفكيره، ولم يحاول حتى ان يستعيد فى مخيلته صورتها التى تعود ان يستعيدها فى كل لحظة من لحظات ايامه.. لقد اخذت هذه الصورة تبتعد فى رأسه شيئا فشيئا، لتتجسم فى مكانها صورة عبده بك.. ضخمة بشعة كريهة.

وأحس ان عبده هذا أصبح العقبة الوحيدة فى سبيل سعادته، بل احس ان هذا الرجل أصبح يقف امام عينيه كدعوة مجنونة صارخة الى الحرب.. والى الكفاح.. والى الجهاد. والى الكره.. والى المقت.. والى الحقد..

وتعثرت خطاه وكأنه فزع من نفسه..

الكفاح.. الجهاد.. الحرب.. انها معان جديدة لم تثر فى نفسه من قبل، ولم يحس بها فى صدره، ولم تلتقطها اعصابه.

انه يستطيع ان يحدثك عن تاريخ كل حرب، ويستطيع ان يروى لك تفاصيل كل ثورة، واسباب كل انقلاب، وان يعد لك بحثا عن كراهية الطبقات بعضها لبعض.. ولكن كل هذا العلم لم يكن الا سطورا قرأها فى الكتب وجمعها فى رأسه دون ان ينزلق سطر واحد منها الى قلبه..

انه لم يفهم ما فى الكتب الا انها مجرد نظريات جافة مجردة عن الاحساس ومجردة عن العاطفة.. مجرد حروف كالارقام تدل على احصاء ولكنها لا ترسب فى النفس ولا تحركها.

ولكن.. لماذا يفكر فى الحرب الآن..

يحارب من؟

عبده؟! وكيف يحاربه؟!

واخذ يقارن بين نفسه وبين عبده بك..

واحس ـ لأول مرة ايضا ـ بضآلته وحقارة شأنه.. ان عبده يمتلك كل شيء.. يمتلك الثروة والجاه والنفوذ.. أما هو، فماذا يمتلك؟ لا شيء سوى سطور من العلم لم تغنه شيئا، ولم تنله الثروة ولا الجاه ولا النفوذ.. ولا يولندا!

بأى حق يمتلك عبده كل هذا.. انه لم يكدح كما كدح، ولم يعصر عينيه بين الكتب كما عصرها، ولم يحرم نفسه من لياليه وايامه كما حرمها.. انه جاهل افاق نصاب، تاجر بعاطفته الوطنية عندما اشتغل مع الانجليز فى الحرب العالمية الأولى، وتاجر بعاطفته الانسانية عندما كان يسوق العمال الى حتفهم

لد خطوط السكك الحديدية الحربية فوق جثثهم وتاجر بشرفه عندما نصب وسرق وارتشى وتجسس، وتاجر بشرف الآخرين عندما استطاع ان يشترى ذمم الوزراء وكبار الموظفين.

ورغم ذلك فعبده هو القوى.. هو صاحب الثروة والجاه والنفوذ.. وصاحب يولند!

اما هو.. فهو الضعيف الذليل المسكين رغم علمه والشهادات الفخمة التى حصل عليها ولقب «الدكتور» الذى يسبق اسمه..

وكعادة الضعفاء، بدأ يتلفت بعينى خياله عن شىء يعينه على ضعفه.

وكعادة الضعفاء ايضا، بدأ يبحث باحساسه عن ضعيف مثله يشاركه هذا الاحساس.. فاذا به يجد شعبا كاملا من الضعفاء!

ان كل فرد من افراد هذا الشعب ضعيف مثله، محروم مثله، حاقد مثله، كاره مثله.. ولو اجتمع كل هؤلاء الضعفاء لقامت الحرب وبدأ الجهاد.. الحرب على عبده بك، والجهاد ضد عبده بك!

وتفتح احساسه الشعبى.

وعرف لماذا لم يندمج مع زملائه موظفى وزارة الخارجية، ولماذا لم يتذوق يوما احاديثهم ولا تقاليدهم، ولماذا لم يصادق واحدا من هؤلاء الثراة واصحاب الشركات، وانما كان كل ما بينه وبينهم دائما هى صلات العمل.. ان هؤلاء جميعا ليسوا ضعفاء مثله، وليسوا محرومين مثله. ولا يشاركونه احساسه، فهو لا ينتمى اليهم ولا الى مجتمعهم الذى يعيشون فيه، فكان

يفضل عليهم دائما صحبة كتاب.

وبدأت سطور الكتب التى يحشو بها رأسه يصبح لها معنى، بل بدأ يرى منها اسلحة يستعين بها فى الحرب التى يدفعه حقده الى اعلانها.

«لكل حسب حاجته، ومن كل حسب قدرته».. هذا السطر قرأه فى كتاب عن النظم الاقتصادية، وقد فهمه يوم قرأه ولكنه لم يحس به إلى اليوم.

«من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله».. سطر آخر قرأه فى الكتب، ولم يصل إلى قلبه الى اليوم..

ان السطر الأول هو المبدأ الشيوعى..

والسطر الثانى هو المبدأ الاشتراكى..

فأى المبدأين يتخذه سلاحا لحربه؟!

انه وهب الدولة كل قدرته، بل ما فوق قدرته، ولكن الدولة لم تسد له حاجته، ولم تعطه حسب عمله.. لم توفر له حتى تكافؤ الفرص بينه وبين عبده بك لتختار بينهما يولند، بل لم توفر ليولند نفسها الحق فى ان تختار الرجل الذى تريده بل اجبرتها على اختيار عبده بك عندما سمحت له ان يكون له هذا المال وهذا الجاه وهذا النفوذ..

ان من حقه اذن ان يكون اشتراكيا..

بل من حقه ان يكون شيوعيا..

ولم يفكر طويلا فى الشيوعية والاشتراكية.. انما وصل إلى بيته وصدره يفيض بحماس عنيف، واعصابه تكاد تلتهب نارا تسرى فى بدنه فتدفئه وتلفه فى نشوة عنيفة مجنونة.. نشوة

الحرب.. الحرب من أجل الضعفاء.. الحرب على القوى. الحرب فى سبيل يولند!

وجلس إلى مكتبه وامسك بقلمه..

ولم يكتب بحثا من هذه البحوث الجافة الاحصائية.. ولم يعد التقرير الذى طلبه منه عبده بك.. بل كان يكتب محاضرة عن كفاح الضعفاء.. عن الشعب..

وأحس لأول مرة انه لا يكتب براسه بل بقلبه.. وانه لا يكتب ارقاما بل يكتب حقوقا.. وان قلمه يخط كلمات لم يخطها من قبل.. كلمات تخاطب العاطفة والعقل، لا العقل فحسب.. احس بنفسه كاتبا وفنانا لا مجرد عالم.. واحس ان السطور التى تمر من تحت قلمه هى صفعات حادة لعبده بك.. صفعات عنيفة صارخة جريئة.. صفعات يصفق لها الناس، ويهتفون له من اجلها.

واستمر يصفع عبده بك حتى ملأ بالصفعات عشر صفحات. وشعر انه استنفد فى هذه الصفحات كل طاقته الحيوية، هذه الطاقة التى كانت تدفعه فى لياليه الطويلة المسهدة الى البحث وراء اوهامه، وإلى رسم صورة يولند بخياله، وإلى تجسيمها امرأة عارية تناديه حتى تنتفض خلاياه من فوق اعصابه وتفور دماؤه، فيجن ويمزق اعصابه بيديه حتى يقع محطما باهت اللون فى شبه غيبوبة.

لقد نام هذه الليلة دون ان يمزق اعصابه..

نام دون ان تطوف به احلامه مجسمة فى امرأة عارية، فقد اصبحت احلامه مبدأ يكافح من اجله، ويعلن الحرب فى سبيله.

نام وقد خيل إلى القزم أنه أصبح عملاقا..

نام وقد خيل إلى هذا الوجه النحيل ذى الجلد الاصفر المشدود والشفتين الباهتتين انه أصبح بطلا مغوارا..

نام العالم وقد خيل إليه انه أصبح قائدا، أو على الاقل، زعيما!.. ثم...

اتصل به سكرتير عبده بك فى اليوم التالى، وحدد له موعدا للقاء الاقتصادى الكبير، فى المساء.

وكان الموعد فى صالة الرقص باحد الفنادق الكبرى لتناول العشاء..

هل يذهب؟

ولم لا يذهب:

سيذهب ليلقى عليه درسا، وليقدم له اعلان الحرب!

ومد يده الى دولاب ملابسه ليخرج حلته الجديدة، ولكنه ردها ثانية.. لماذا يختار دائما حلته الجديدة عندما يستعد للقاء أصحاب الشركات.. ما هذا الضعف.. ما هذا النفاق؟!

ومد يده ثانية واخرج اقدم حلة يملكها..

واختار احقر رباط عنق فى مجموعته الصغيرة..

ثم قرر الا يحلق ذقنه، ولا يمشط شعره..

يجب ان يعرف عبده بك انه لا يستحق حتى ان يحلق له ذقنه أو يمشط له شعره، واذا كانت يولند تتجمل من أجله، فهو ليس فى حاجة الى التجمل له!

ودخل الى الفندق الكبير وهو يدق الارض بكعب حذائه، وقد نفخ صدره، وتعمد ان يطل بعينيه فى كل وجه يمر به، كأنه

سيد يراقب قطيعا من الغنم..

واقترب من صالة الرقص..

ما هذا..

ان اقدامه تضعف فوق الارض، وصدره المنفوخ ينطوى شيئا فشيئا، وعينيه ترتخيان تحت نظارته السميكة..

وحاول ان يقاوم ضعفه..

ولكنه عندما اطل على صالة الرقص تسمر فى الارض كوتد جاف تخلف عن مخيم القافلة..

انها معه ايضا..

يولند..

وهى فى ثوب من ثياب السهرة يكشف عن كتفيها السمراوين، ويكاد ينزلق عن نهديها.. كتفيها اللتين كان يخيل إليه أنه يتحسسهما كلما لمس بكفه الزجاج الموضوع فوق مكتبه.. ونهديها اللذين طافت بهما عينا خياله فى الليالى الطويلة المسهدة التى ينهك فيها اعصابه..

انه لم يرها ابدا، حتى فى خياله، بهذا الجمال..

هل يستطيع عبده أن يهبها كل شىء حتى هذا الجمال؟

وارخى عينيه.. واحس بقلبه يكاد يحطم ضلوعه، واحس باطرافه ترتعش وكأنه غرق فى بحر من الثلج.. واحس بساقيه تتخليان عنه حتى اضطر ان يستند إلى احدى الموائد كى لا يقع.. وسمع عبده يناديه بصوت لا يخلو من لهجة الأمر، ولا يخلو من سخرية:

اتفضل يا استاذ!

وتفضل الاستاذ، وهو ينقل ساقيه كأنه انسان صناعى يدار بالكهرباء، وجلس بعد ان مد اليهما يدا باردة يصافحهما بها..

جلس صـامـتـا.. لم يعلن الحـرب.. ولـم يطالب بحـقـوق الشـعب.. بل لـم يطالب بحقه فى لقب «دكتور» وهو يرى الرجل يصر على ان يناديه بلقب «استاذ».

جلس وبجانبه امرأة لا يستطيع ان يرفع عينيه إليها..

امرأة كتب عليه حبها..

وكتب عليها ان تهب له العمر كله..

(٣)

ما هذا الضعف الذى ينتابه؟

لقد كان قويا منذ لحظات.. كان يدق الارض بقدميه وهو يسير منفوخ الصدر، يطل على الناس بعينين نافذتين وكأنه سيد يسير بين قطيع من الغنم، وكان قد قضى ليلة بأكملها وهو يصفع عبده بك بقلمه فى المحاضرة التى اعدها عن حقوق الضعفاء.. حقوق الشعب..

ماذا جرى له؟! ما له يتهاوى!

لماذا لا يستطيع ان يرفع عينيه الى عبده بك ليصفعه بهما، كما كان يصفعه بقلمه فى الليلة السابقة؟!

هل يخشاه الى هذا الحد.. هل تذوب شخصيته امامه حتى يصبح هكذا لا شىء سوى كومة من العظام الجافة ملقاة فوق مقعد؟!

اين الحرب التى قرر ان يعلنها عليه وعلى امثاله من اصحاب الشركات.. اين بروقها.. اين رعودها.. اين - على الاقل - مقدماتها؟!

أم هل يخشاها هى؟

يخشى هذا الجمال الذى يبهر انفاسه.. ويخشى هذه الخصلة من الشعر الاسود التى تتدلى فوق عينيها كمنديل اسود يمسح عنهما الدموع، والتى يضل بين خيوطها فى عالم مبهم لا نهاية له ولا بداية ولا حدود؟!

ام هل يخشى نفسه؟

يخشى هذه اللهفة عليها، ويخشى هذا الحنين اليها، ويخشى هذه الليالى المسهدة الطويلة التى تتركه فيها لاحلامه واوهامه، ويخشى خلاياه التى تنتفض، ودماءه التى تفور، واصابعه التى تتشنج وهى تمتد لتمزق اعصابه.

ورفع عبده بك الكأس عن شفتيه الغليظتين، وقال وهو يمد ذراعه ليلتقط عودا من «الكرفس» يخفف به مرارة الكأس:

والآن يا استاذ.. لنتحدث عن الشركة..

ورفع جفنيه عن عينيه وكأنه يقاوم بهما كابوسا شدهما إلى الارض بسلاسل غليظة من الحديد..

وقبل ان يتكلم عبده بك سمعها تقول فى صوت كأنه حفيف ملاك رحيم:

يبدو ان الاستاذ ليس سعيدا هذه الليلة!

والتفت إليها وواجهها بعينين لا يدرى كيف استطاع ان يعلق بهما نظرة ساخرة:

وانت؟ هل انت سعيدة؟!

وصمتت.. وكأن الدنيا كلها قد صمتت معها.. ثم مرت بين عينيها سحابة قاتمة ازاحتها بضحكة كبيرة عالية لها رنين

كرنين قطعة نقود مزيفة، وقالت له وهى تميل بكتفها على صدر عبده بك:

يا صديقى.. حاول ان تنسى..

قال وكأنه يخاطب نفسه:

انسى كل هذا الشقاء؟

قالت وهى تداعب بكفها الرأس الاصلع الكبير الموضوع فوق كتفى عبده بك:

لا.. حاول ان تنسى السعادة؟!

وانقطع ما بينهما من حديث..

وكان أول حديث بينهما..

وبدأ عبده بك بين رشفات كأسه وقضمات اعواد «الكرفس» التى يلوكها بين اسنانه فى صوت كريه كصوت حجر الطاحون.. يتحدث عن الشركة الجديدة.. ثم طغى به الكأس فسكت عن الشركة ومد ذراعه الضخمة واحاط بها خصر يولند وجذبها اليه..

ومالت عليه ريثما داعبته بكلمة ضحك لها حتى رقص «كرشه».فوق صدره، وارتخت ذراعه عن خصرها فاطلقها..

وقام صاحبنا..

وقام الاستاذ منصرفا..

ولم يعلق احد منهما على قيامه أو يحاول ان يبقيه، واكتفيا بأن ودعاه بتحية حاول كل منهما ان يضمنها احترامه وتقديره للعلم والعلماء.

ولم يفكر هذه الليلة فى اعلان الحرب على عبده بك

وامثاله..

لم يفكر فى الشيوعية والاشتراكية ليتخذ منهما سلاحا فى حربه.

لم يفكر فى الضعفاء امثاله الذين لو اجتمعوا لبدأ الجهاد، ولقضى على عبده ولخلصت له يولند..

كان كل ما فى رأسه صورة واحدة..

صورة عبده بكرشه وصلعته، وذراعه الضخمة تحيط خصر يولند.. واتسعت هذه الصورة فى خياله.. فرأى عبده يسقط بشفتيه المخمورتين فوق كتفيها العاريتين، ورأى كفه الغليظة تمتد لتندس بين طيات شعرها، ثم تنزلق لتتحسس عنقها، بينما الشفتان المخمورتان قد استبد بهما طيش العجوز المتهالك فدارتا بلا وعى تلعقان اللحم.. لحم القتيل!

وخيل إليه انها تستغيث.. ثم خيل إليه انها مستسلمة ضاحكة عابثة تفيق المخمور العجوز بخمرها، وتطفىء ناره بنارها..

وخيل إليه انه يمد ذراعه لينقذها ثم خيل إليه انه يمد ذراعه ليصفعها وخيل إليه انه يرفع فى كفه سكينا حادة ضخمة ليغمدها فى صدر الرجل العجوز، ثم خيل إليه انه اغمد السكين فى صدرها..

وامتلأ رأسه بالطنين.. طنين مؤلم قاس.. فدار يخبط الجدران بقبضته وفى صدره صرخة مكبوتة تمزق حلقه.. ثم احس باعصابه ترتعش وتنقبض وكأنها تتجمع لتقذف روحه، ثم اذا بألم حاد يتجمع فى عينيه، واذا بالألم يسيل على وجنتيه

دموعا ينوء بثقلها فينكفىء على الارض يبكى..

ورغم ذلك فقد عاد..

عاد فى اليوم التالى، والذى يليه..

عاد الى مقابلة عبده بك والتردد معه على الفنادق الكبرى واندية السباق حتى أصبح ذيلا من ذيوله.. ولم يكن عبده بك يمانع فى ان يكون له ذيل من العلماء..

وكان عبده يطمئن إليه يطمئن الى خجله الدائم، ويطمئن الى صمته، ويطمئن إلى ضعفه، ويطمئن الى وجهه الاصفر.. يطمئن إليه، أو على الاصح لا يخشاه ولا يحسب له حسابا..

وكانت يولند ترى فيه شيئا محترما يوضع بجانبها حتى يخفف عنها وقاحة ظهورها مع عبده فى المجتمعات.. كانت هى الاخرى لا تحس به ولا تحسب حسابه ولا يثير فيها الا هذه الشفقة التى تطوف بقلبها كلما لمحت هذا الشقاء والضعف الذى يظلل وجهه بهذه السحابة الصفراء..

وقد رضى منهما بذلك..

كان يجلس صامتا.. لا يتكلم الا اذا دفع الى الكلام، ولا يبدو عليه تأثر بما يدور حوله أو اهتمام، ولا يطلق للنار التى تحرق جوفه سبيلا لتلطيفها..

وقدمت له ذات يوم كأسا من الخمر..

قال:

شكرا.. انى لا اشرب..

قالت:

لا تشربها.. ولكن دعها تشربك!

قال:

قد تعافنى كما عافتها نفسى!

قالت:

ان الخمر لا تعافى الا السعداء!

وتركت الكأس امامه، وعادت تلتفت إلى عبده بك..

ونظر طويلا الى الكأس..

لماذا لا يدعها تشربه.. لماذا لا يغرق نفسه فيها.. ربما كان فيها الخلاص والراحة الكبرى..

ومد اصابع مترددة اليها.. الى الكأس.. وكأنها قطعة من الجمر يخشى ان تحرقه.. ثم نظر حوله وكأن الدنيا كلها تراقبه وتحذره، ثم نظر امامه فاذا به يلتقى بوجه عبده وهو يجذب يولند الى صدره، واذا باصابعه تقبض على الكأس ثم ترفعها وتقذف بها فى جوفه، وكأنهاتقذف بالسم فى جوف منتحر..

واحس بغصة..

واحس بقطرات من الخمر تقف فى حلقه مترددة وكأنها تستغفر الله قبل ان تلوث الجوف الطاهر..

ثم اذا به يشهق وينتابه سعال عنيف يكاد يقتلع ضلوعه..

واذا بعبده يضحك ويغرق فى الضحك ويولند تضحك ثم تضرب بكفها فوق ظهره لتريحه من شهقته..

وهدأت انفاسه بعد قليل..

وملأت يولند كأسا اخرى وقدمتها إليه:

دع هذه تشربك فى بطء..

قال وهو ينظر إليها متحديا وكأنه قرر نهايته:

ان الكأس ملول لا تنتظر..

وشرب الكأس الثانية..

والثالثة..

والرابعة..

وتقلصت عضلات وجهه فرسمت حول شفتيه ابتسامة بلهاء لا معنى لها..

ثم انفجر ضاحكا.. واخذ فى الضحك.. ضحكا عريبدا لا معالم له.. وضحكا معه أو ضحكا عليه.. وانتشى عبده بك وهو يرى العالم الشاب الجليل مخمورا، فأخذ يقهقه وهو يضرب الارض بقدميه والمائدة بقبضتيه.. بينما يولند تحاول ان تخفف عن الشاب المسكين حتى لا تقتله نوبة الضحك..

وفجأة ايضا، كف عن الضحك..

واخذ ينقل عينيه بينهما مرة ثانية وهما لا يزالان يضحكان.. ثم وقف.. ودون ان يصافحهما، خرج وهو يسير مترنحا يكاد يقلب المقاعد فى طريقه..

كان يحس بنفسه ولكنه لا يستطيع ان يسيطر عليها..

كان كل شيء فيه مخمورا الا رأسه..

كان يعلم انه يترنح وانه يتخبط بين هذا الجدار وهذا الجدار، ولكنه لا يستطيع ان يصلب عوده أو ان يزن خطواته..

وكان يعلم ان شفتيه مخدرتان وانه يتحدث بهما فى الهواء فيقول كلاما عجيبا، وانه احيانا يغنى، واحيانا يسب ويلعن، واحيانا يقبل بهما عامودا من اعمدة النور، ولكنه لم يكن يستطيع ان يشد اعصاب هاتين الشفتين ليوقفهما عن الكلام

العجيب، أو عن الغناء، أو عن السب واللعن، أو عن تقبيل اعمدة النور..

كان يعلم انه يهوى.. ويهوى بسرعة.. ولكنه لم يكن يستطيع الا ان يترك نفسه للهاوية..

وعندما القى بنفسه على سريره دون ان يبدل ملابسه، احس بالجدران من حوله تنطبق عليه حتى تكاد تكتم انفاسه ثم تنفرج عنه لتتركه معلقا فى فضاء لا قرار له، ثم تدور به كأنه فى يد شيطان مجنون يطوحه فى الهواء ليلهو به..

واحس بمطارق ثقيلة تهوى على رأسه ذى الجلد المشدود والشفتين الباهتتين وسكاكين حادة تمزق امعاءه.. احس بألم يكاد يقتله، فصرخ يتأوه فى صوت ضعيف:

يارب.. رحمتك!

واذا ببقايا الخمر تثور فى جوفه، ثم تنطلق من فيه.. واذا به يغفو فى شبه اغماء، وجسده ملقى فوق سريره فى مستنقع نتن من بقايا امعائه.

ومرت الايام..

وفقد ارادته الا فى لحظات متباعدة كان يحاسب نفسه فيها ويتخذ قرارا لانقاذها لا يلبث ان يتناساه بمجرد ان يخرج الى الشارع..

انه لا يزال ذيلا من ذيول عبده بك ولا يزال يجرى وراء شهوة عينيه لرؤية يولند، ولا يزال يشرب كل ليلة ليعود مخمورا يطلب رحمة الله لينقذه من المطارق التى تهوى على رأسه والسكاكين التى تمزق امعاءه..

وعرف يوما انها ذاهبة الى النادى الارستقراطى الكبير لتلعب التنس، فتسلل من مكتبه فى الوزارة ليذهب وراءها، فهو يستطيع ان يدخل الى هذا النادى، وزملاؤه موظفو وزارة الخارجية كلهم اعضاء فيه، وسبق ان دعوه إليه..

وكان يعتقد انه يرتكب جرما كبيرا عندما يخالف القوانين واللوائح ويخالف واجبه وضميره ويترك مكتبه فى ساعات العمل ليجرى وراء امرأة تشتهيها عيناه.. كان يعتقد ذلك.. ولكنه عندما دخل النادى رأى الوزارة كلها مستلقية فى الشمس تشرب كؤوس «الابريتيف» وتبحلق فى سيقان لاعبات التنس..

وحياه زملاؤه ودعوه اليهم، وقد دهشوا وهم يرونه فى هذا النادى، وفى ساعات العمل الحكومى ايضا..

وجلس بينهم وقد احس انه كان مغفلا كبيرا..

كان مغفلا عندما اذاب نور عينيه وقطع انفاسه فى مراجعة دوسيهات الحكومة واعداد البحوث لها، بينما الحكومة كلها تلهو فى هذا النادى الكبير..

ثم اخذ ينقل عينيه بين وجه عبده بك..

لماذا لم يخلقه الله واحدا مثل هؤلاء الزملاء؟ واذا كان قد خلقه شيئا آخر فلماذا لم يميزه عنهم بشى؟ انه لم يميزه حتى بالترقية الى درجة اعلى، فهم دائما اسبق منه الى الدرجات والترقيات!

ودار بعينيه بين بقية اعضاء النادى:

هذا الشاب المفتول العضل الذى يقضى يومه يلعب التنس،

ثم يجلس الساعات يلعب الشطرنج حتى لا ينسى ان له عقلا..

وهذا الشاب الذى يعيش عالة على مال زوجته، ورغم ذلك فأكثر من امرأة تتمنى ان تتزوجه..

وهذا الآخر الذى تخصص فى رقصة السمبا وفى تنظيم الحفلات المسلية لاصدقائه.. ان السمبا وتنظيم الحفلات جعلا منه شخصية تكتب عنها الصحف، ولو انه تخصص فى القانون أو فى الاقتصاد لما ذكرته الصحف بشىء..

وهذا.. وهذا..

عالم غريب منحل ترتع فيه اللذات، التى يسميها افراد الطبقة الوسطى: فضائح!

لذات لم يكن له منها نصيب، لانه كان مغفلا كبيرا عندما اذاب نور عينيه وقطع انفاسه فى حشو رأسه بسطور الكتب.

ولمحها..

كانت تسير على ساقين عاريتين كأعمدة النور، ومضرب الكرة يهتز فى يدها كأنها تهش به على القلوب التى تلاحقها، بينما نهداها الثائران من تحت قميصها الرقيق يكادان يسبقان خطواتها..

وكان فى ذراعها شاب..

شاب متسق العضلات وسيم الوجه حلو اللفتات، كأنه من سلالة آلهة الأولمب..

وكانت تميل عليه حتى تكاد تنطبع فوق صدره.. وكانت تحادثه وشفتاها تكادان تقفزان الى شفتيه. وكانت ترفع اليه عينيها وكأنها تستجديه وكأنها لا تصدق امانيها..

وركز عينيه على هذا الشاب..

وتوقف كل شيء فيه.. عقله.. قلبه.. حتى وجوده لم يعد يحس به..

ثم جمع ساقية وقام بهما.. وخرج من النادى متجها الى بيته.. وهناك وجد نفسه واقفا امام المرآة.. ولأول مرة يرى نفسه..

لقد وقف امام المرآة من قبل ليمشط شعره أو يربط رباط عنقه، ولكنه لم ينظر إليها ابدا بعينين واعيتين.. ولم يكن فى حاجة الى النظر اليها الا بقدر حاجته الى الوقوف امام المصور مرة أو مرتين فى العمر ليلتقط له صورة فوتغرافية كلما اضطره عمله الى استخراج بطاقة رسمية أو جواز سفر..

ولكنه اليوم تفتحت عيناه عن شكله.. رأى هذا الرأس الكبير، والوجه النحيل ذا الجلد الاصفر المشدود فوق عظام بارزة رقيقة، ورأى هاتين الشفتين الباهتتين، ورأى هاتين العينين الواسعتين وراء زجاج نظارته السميكة، ورأى قامته القصيرة وذراعيه الطويلتين فى غير اتساق، وكفيه الهزيلتين ككفى فتاة لم تدب فيها بعد حرارة الشباب، ورأى ان شعيرات ذقنه لم تنبت كثيفة قوية لتضفى عليه مظاهر الرجال..

رأى كل ذلك بينما تطوف به صورة الشاب المتسق العضلات الوسيم الوجه الذى كانت يولند تتعلق بذراعه..

ثم وجد نفسه يتحسس عضلات ذراعيه فلا يجد الا عظاما، ويخلع قميصه ليكشف عن صدره فيرى ضلوعا بارزة يستطيع ان يعدها واحدا واحدا كأنها اعواد من الجريد تكون قفصا

باليا من اقفاص الفراخ..

اين كان تائها عن نفسه طوال هذه السنين؟

وكيف يطمع فى امرأة وهو قزم مسخ تعاف حتى امه ان تضمه الى صدرها؟

كيف يفرض هذا القبح كله على امرأة، وكيف يقاوم مثل هذا الشاب القوى والرجولة الكاملة الوسيمة التى تعلقت بها يولند؟..

هل يعلن الحرب ايضا على هذا الشاب كما حاول ان يعلنها على عبده بك؟..

لقد اعتقد يوما ان ثروة عبده بك هى الحائل الوحيد بينه وبين المرأة التى يريدها، ولولا هذه الثروة لاختارته هو دونه، وظن يوما انه يستطيع ان يقضى على هذه الثروة لو اعتنق الشيوعية أو الاشتراكية واتخذ من مبادئها اسلحة يضعها فى يد الضعفاء امثاله ليعلنوا بها الحرب..

ولكن هل يستطيع بالشيوعية والاشتراكية ان يحارب هذا الشاب المتسق العضلات الوسيم الوجه؟!

هل تستطيع جميع المبادىء التى قرأها فى الكتب ان تجعل منه رجلا تشتهيه امرأة..

وانتابته ثورة مجنونة.. ثورة على كل شىء.. على الارض وعلى السماء وعلى القدر..

ثم صمت كل شىء الا انفاسه المتلاحقة من بين قطرات العرق البارد التى تتفصد من وجهه الاصفر النحيل..

وتخبط مذهولا يسعى إلى الشارع..

وقادته قدماه الى الفندق الكبير وجلس الى البار يعب الخمر.

وشرب كثيرا.. وكانت شفتاه تتحركان فى كلمات ليس لها معنى، ثم بدأ يبتسم، واتسعت ابتسامته حتى اصبحت ضحكة كبيرة.. ثم قهقهة عالية..

وانحنى يريد الخروج، فالتقى بها تدخل وهى فى ذراع عبده بك.. فتوقف قليلا، ومر بين عينيه شىء كوخز الابرة.. ثم خطا خطوة وتصدى لهما وقهقه فى وجهيهما قهقه جوفاء.. وصرخ ساخرا.. يارب! وارتاعت يولند..

وتأفف عبده بك..

ثم نحياه عن طريقهما، واتجها إلى مائدتهما..

وهز كتفيه واطلق قهقهة اخرى جوفاء.. وخرج الى الطريق يترنح، ويلقى كلاما فى الهواء لا معنى له..

ومرت سيارة يقودها الشيطان فالقت به على الارض..

ورقد فى الطين هادئا، بلا وعى، وعلى شفتيه آثار القهقهة الجوفاء، وقد هدأت حتى أصبحت اقرب الى الابتسام..

ومر عسكرى البوليس، فانحنى عليه يقلب الجسم القزم بيد قاسية، ثم بصق على الارض، واتجه الى آلة تليفون ليدعو الاسعاف وهو يردد متأففا:

الله يقطع الخمرة على اللى بيشربوها..



وجلست يولند بعد يومين تسأل:

اين الاستاذ؟

فى المستشفى. لقد دهمته سيارة..

وسألت فى ارتياع شديد لم تدر هى نفسها له سببا:

اى مستشفى؟

المستشفى الايطالى..

سأذهب إليه..

وقامت الى المستشفى، ولم تكن تدرى انها قامت لتكتب قصتها معه..

(٤)

ذهبت إليه فى المستشفى وفى يدها باقة من الورد.. ولم تكن تدرى لماذا ذهبت إليه..

كان كل ما تحس به انها تجامل صديقا وقع له مصاب، وهى حريصة دائما على ان تجامل الاصدقاء، وقد تصل فى مجاملتهم الى حد النفاق.. ولم يعد هذا النفاق يكلفها شيئا.. لم يكن يكلفها شيئا ان تبتسم لكل رجل، ولم يكن يكلفها شيئا ان تتحمل حديث مخمور يثقل به على اذنيها، أو تترك وجنتيها لقبلة من هذا أو لمسة من ذاك، بل انها كانت تتذكر جميع اعياد ميلاد هؤلاء الاصدقاء الذين يمرون فى حياتها فترسل لكل منهم هدية صغيرة تستردها كبيرة فى عيد ميلادها..

انها امرأة ضعيفة ليس لها سلاح فى هذه الدنيا التى تعيش فيها، الا هذا النفاق.

ورغم ذلك فقد كانت مدفوعة اليه باحساس اقوى من المجاملة وارق من النفاق..

وكان راقدا فى سريره والضمادات تلف رأسه الكبير،

وذراعه مربوطه الى صدره، ووجهه هادىء، وعيناه مغمضتان كأنه فى حلم ناعم جميل..

وفتح عينيه فى بطء كأنه يتثاءب بهما..

والتقى بوجهها..

وعاد واغمض عينيه كأنه يحاول ان يسترد بقايا حلمه..

ثم فتح عينيه مرة ثانية وقد التمع فيهما بريق مخيف، وصرخ:

انت؟!

كيف حالك؟

قالت وهى تقدم مع ابتسامتها باقة الورد:

انت وحشتنى قوى يا استاذ.. ازيك؟!

واطاح باقة الورد بذراعه، وصرخ وقد اشتد لمعان البريق المخيف فى عينيه:

ابعدى عنى .. اخرجى من هنا..

قالت مرتاعة وهى تتراجع عن متناول ذراعه:

أنا.. لماذا.. ماذا حدث.. هل انت بخير!

وعاد راسه فوق الوسادة وقال فى صوت ضعيف وقد اصفر وجهه وتلاحقت انفاسه:

لقد كنت بخير قبل ان اراك..

قالت وهى فى عجب:

مالى أنا.. لقد دهمتك سيارة..

انت التى دهمتنى.

كيف؟

الا تدرين!

وابتسم ابتسامة خفيفة كأنه يهزأ من الدنيا أو يهزأ منها أو يهزأ من نفسه، ثم اغمض عينيه، وادار رأسه عنها..

وخطت خطوة إليه، ثم جلست على حافة السرير، ومدت كفها فى تردد ووضعتها فى كفه.. وقالت فى صوت يقطر حنانا:

لست ادرى شيئا..

وقبض على كفها فى كفه، وضغط عليها وكأنه يريد ان يعتصرها، ثم ادار لها رأسه ورفع عينيه اليها، وحرك ذراعه المرتعشة الهزيلة فقرب كفها الى فمه واستراح عليها بشفتيه فى قبلة صامتة لا يريد لها ان تنتهى..

ودق قلبها فى رفق وكأنه قلب أم تحنو على وحيدها، وارتسمت فى عينيها نظرة غلب الحنان فيها الدهشة.. ثم قالت فى همس وكأن عاطفتها قد حبست صوتها:

الآن ادرى..

ورفع شفتيه عن كفها وتمتم فى صوت خافت مرتعش:

ماذا تدرين؟

انى اعجبك..

اذن فانت لا تدرين..

انك تريدنى..

انت ايضا لا تدرين..

ماذا اذن؟

وركز عينيه فى وجهها برهة وكأنه يستجمع شجاعته، ثم

قفزت الدماء الباهتة الى وجنتيه فاحتقنتا، ثم عاد واسدل جفنيه فوق عينيه وارتعشت شفتاه وكأن الحمى دبت فيهما، ونطق وكأنه يقتلع الحروف من اعماق بعيدة فى قلبه:

انى.. انى احبك!

قالها واستراح وكأن الكلمة كانت تجثم على صدره آلاف السنين.. ثم ادار رأسه عنها كأنه قال شيئا ليس من حقه ان يقوله، أو كأنه خجل من منكر اتاه..

وشهقت يولند، ولكنها التقطت شهقتها ودفنتها فى صدرها قبل ان تصل إلى اذنيه، ثم حاولت ان تبتسم ابتسامة هادئة وهى تضع يدها على كتفه النحيلة قائلة:

الى هذا الحد.. ولماذا لم تصارحنى بكل هذا الحب؟

قال وهو لا يزال يدير رأسه عنها:

انه حب بلا امل..

ان الحب هو الامل، ولو كنت تحبنى لما فقدت الامل..

انى قزم ضئيل..

انك عقل كبير.. والمرأة قد يفتنها عقل الرجل قبل ان يفتنها شكله..

انى فقير..

انك غنى عن الناس.. والمرأة قد تسعد فى الفقر اذا ما اغناها رجلها عن الناس..

ليس لى ما اقدمه لك..

يكفينى حبك..

والتفت إليها وحاول ان يتكلم:

ولكن..

وقاطعته:

هناك امل.. امل كبير!

قال:

لقد تعذبت كثيرا فى سبيل هذا الامل..

قالت:

وستسعد به كثيرا..

ووضعت اصبعها على شفتيه حتى لا يتكلم، ونظرت الى وجهه وكأنها تنظر اليه لأول مرة.. نظرت الى الرأس الكبير، والى الوجه النحيل، والعظام البارزة، والجلد الاصفر المشدود، والشفتين الباهتتين، ثم احست بيد تقبض على قلبها وتغرز اصابعها فيه حتى تدميه، ثم تحاملت على نفسها وانحنت عليه تقبل الوجنه الباهتة المطلة من بين الضمادات البيضاء، وكأنها تقبل كلبا ضالا اعجف رقد منهكا يلفظ انفاسه الاخيرة، بينما احاطت به ملائكة بيض يزفونه الى السماء.

وانتشى تحت وقع شفتيها..

ثم رفعت شفتيها عن وجنتيه، دون ان تبتلع قبلتهما أو تبللهما بريقها، وابتسمت فى حنان قائلة:

والآن اتركك بعد ان تعدنى ان تستريح..

قال وقد تهلل وجهه بشرا:

لقد استرحت..

وخرجت..

خرجت وصدرها يضيق بانفاسها.. كانت متأكدة انها لا

تريد ان تفتح امامه ابواب الامل، وأنها لن تحبه ولا تتمنى ان يحبها، وان ليس فيه شيء تريده، بل ليس فيه شيء تحتمله، ولكنها لم تستطع الا ان تشفق عليه..

وقد كانت دائما ضحية هذه الشفقة.. ضحية هذه اليد التى تعصر قلبها كلما مرت بمخلوق ضعيف تعتقد انه فى حاجة اليها..

بل ان قصتها هى قصة هذا القلب الكريم الذى تكرم على الناس حتى بجسده.. هذا القلب الشفوق الذى اشفق على كل من التقت به ولم يشفق عليها.. وهذا القلب الطيب الذى جمع الدنيا فى طيبته ثم نحاها عن هذه الدنيا..

ان امها ايطالية، واباها مالطى، وهى اصغر اربع شقيقات واخوين.. عائلة كبيرة يعولها اب مكافح يعمل أكثر من عمل ويجمع الرزق من كل باب شريف.. وكانت هى وحدها بين شقيقاتها الثلاث التى تشبه اباها.. كانت سمراء مثله، وكن شقراوات مثل امهن.. كان جمالها هادئا يتسلل الى اعصابك فى رفق كمخدر عبق اذا ما طاف بك ادمنته.. وكان جمالهن صاعقا يطرق عينيك فى قوة ويسقط فى قلبك فيهزه بعنف ثم لا تلبث ان تمله قبل ان يتمكن منك.. وكانت كأبيها تحمل دائما عبء الآخرين وتفنى نفسها فى سبيلهم.. وكن كأمها لا يحملن حتى عبء انفسهن ولا يشعرن الا بما يردن.. انانيات تنحصر الدنيا كلها فى رغبة من رغباتهن..

وقد خط قلبها الكريم الشفوق الحنون جميع سطور حياتها.

كانت لها زميلة وهى لا تزال طفلة فى مدرسة سان فنسان وكانت هذه الزميلة ضعيفة، غبية مهملة دائما، وكانت بقية

الطالبات يتخذن منها اضحوكة يضحكن عليها ويلهين بها، فوقفت هي وحدها بجانبها تحميها من زميلاتها وتصد عنها نكاتهن.. الى ان حدث يوما ان اخطأت هذه الزميلة فضربتها احدى الراهبات اللاتي يقمن بالتدريس، فلم تتمالك يولند أو يوللى - نفسها وهجمت على الاخت الراهبة تضربها وتبعدها عن زميلتها الضعيفة..

وكان ان فصلت من المدرسة نتيجة لتعديها على الاخت الراهبة وانتقلت الى مدرسة اخرى اقل رقيا من الأولى..

وكان لها وهى فى الرابعة عشرة فتى من أبناء الحى يكبرها سنا بقليل.. كانت ترتاح إليه وتسعد بصحبته وتنعم بذراعيه فى امسيات يوم السبت عندما ترقص معه فى الحفلات التى يقيمها الاصدقاء كل اسبوع.. الى ان تقدمت فتاة اخرى تنافسها فى هذا الشاب، فلم تقبل المنافسة انما اعتقدت ان هذه الفتاة تشقى بحب الفتى وتجن به، فسعت بها اليه، ووطدت بينهما الصداقة ثم تنازلت لها عنه، ورضيت ان تشقى بدونه بدلا عنها..

وعندما اعلنت الحرب سعت حتى التحقت كمتطوعة فى الجيش البريطانى، وعهد اليها بعمل فى فرقة المقاومة الجوية فكانت تجلس طول الليل الى آلة تلتقط اصوات الطائرات المغيرة فترسل بها اشارات الى فرق المدفعية.. بينما شقيقاتها الثلاث يقضين طول الليل يبحثن عن الضباط الانجليز حتى وجدت كل منهن زوجا من بينهم..

وكان مرتبها الكبير الذى تتقاضاه من الجيش والذى بلغ سبعين جنيها فى الشهر يضيع بين امها وشقيقاتها.. كانت

تنفقه عليهن مختارة.. كانت تشترى لهن ثيابا وهدايا وتشترك فى نفقات البيت، وكان يكفيها دائما فرحتها بفرحتهن..

والتقت باحد الضباط الذين يعملون فى فرقتها.. كان حزينا دائما ودائما يحن الى وطنه، ودائما يحدثها عن امه وبيته وشقيقته والفتاة التى يحبها.. واعطته كل شىء لينسى غربته.. اعطته شفتيها لينسى شفتى الفتاة التى تنتظره، واعطته حنانها لينسى حنان أمه وشقيقته، ودعته الى بيتها لينسى بيته..

وخرجا يوما فى الفجر من مركز قيادة الفرقة بعد ان انتهى عملهما.

كان فجرا باردا كثيف الضباب، وكانت ارض الشارع تلمع تحت قطرات الندى، ولفحات الهواء تلسع وجهيهما فى رفق لذيذ، بينما مصابيح النور تلقى حلقات مضيئة صفراء فوق سحب الضباب الواطىء، كأنها هالات فوق رءوس ملائكة لا تبين وجوههم.

وكان كل ذلك يذكره بمدينة لندن.. جوها وضبابها وشوارعها ولفحات هوائها..

واراد ان ينسى لندن فدعاها الى بيته ليشربا قدحا من الشاى الساخن.. وهناك فوق الاريكة الواسعة اخذ يحدثها عن لندن وعن لياليه التى قضاها فى لندن، وعن الفتيات اللواتى التقى بهن فى لندن..

ثم أغمض عينيه ليتوهم نفسه فى لندن..

ثم ضمها الى صدره واحتضن شفتيها بشفتيه ليتوهم انها احدى فتيات لندن!

ثم مد ذراعه واطفأ النور...................

....

....

....

....

....

ثم رفع شفتيه عن شفتيها، وابعدها فى رفق عن صدره، وقال وهو يسترد انفاسه:

انك اشهى من كل فتيات لندن!

ولم تكن سعيدة هذه المرة كما اعتادت ان تكون سعيدة كلما ظنت انها استطاعت ان تخفف عنه بعض غربته.. لقد احست هذه المرة انها دفعت كثيرا لتنسيه لندن!

وكرهت لندن هذه، بل شعرت انها تكرهه، وتكره نفسها وتكره قلبها الضعيف الذى يحنو على كل ضعيف محزون، ولا يحنو عليها، وهى اشد الناس ضعفا وحزنا..

ورغم ذلك فقد ظلت تحرص على اسعاد هذا الضابط، وظلت تساعده فى التخفيف عن غربته، ولكنها لم تحاول بعد هذه المرة ان تنسيه لندن!

وخرج الضابط من حياتها بانتهاء الحرب، دون ان يترك لها سوى ذكرى تبتسم لها احيانا، وتخجل منها احيانا، وتثور عليها احيانا اخرى..

والتقت بعد ذلك بالشاب الوحيد الذى احبته..

كان ابن احد كبار موظفى السفارة البريطانية فى مصر.. احبته بكل ما فى قلبها من حنان وطيبة وشفقة وكرم، وبكل ما

تمنته فى احلامـها من سعادة وحياة مستقرة آمنة وادعة.. احبته حتى لم يعد فى قلبها شىء تعطيه للضعفاء المحزونين الذين اعتادت ان تشفق عليهم..

وكانت الحرب قد انتهت، والتحقت بوظيفة فى بنك باركليز، فانها - كأبيها - لا تستطيع ان تعيش بلا عمل.. وكان هو موظفا فى شركة شل فنقل الى احد فروع الشركة على ساحل البحر الاحمر..

وقبل ان يسافر الى مقر منصبه الجديد، اعلنا خطبتهما.

واكتملت لها السعادة.. ومضى عام كامل وهى تخرج من البنك لتجلس فى بيتها تكتب له.. كانت تكتب له كل يوم، وتعيش معه فى صفحات طوال لا تنتهى إلا عندما تنام بعد ان تضع صورته فى جفونها..

ولكن هذه السعادة لم تدم، فقد تدخلت امه لتحرمها منه.. وكان قلبها الطيب الحنون اضعف من ان يقاوم انانية الأم التى لا تريد لابنها ان يتزوج من فتاة هى ابنة رجل مالطى.. والانجليز لا يحترمون كثيرا ابناء وبنات مالطة!

ضاع منها حبها..

وعاشت اياما وشهورا فى هزات عاطفية بدأت آلما حادا يمزق قلبا، ثم اصبحت حزنا صامتا يلفها فى طياته وتستسلم له فى دعة ثم ذاب الحزن فى قلبها وعاد قلبها اشد طيبة، واشد شفقة، واكثر كرما..

وبدأت أحوال المعيشة تسوء..

كانت شقيقاتها الثلاث قد تبعثرن فى انحاء الارض مع ازواجهن، وكان شقيقها قد سافر الى بلد آخر يرتزق منه،

وشقيقها الآخر لا يزال طالبا لا يريد ان يدرس بقدر ما يريد ان يلهو، وكانت ابواب العمل قد بدأت تغلق فى وجه والدها العجوز عاما بعد عام..

ووجدت العبء كله يقع على كاهلها، وهى لا تملك أكثر من ثلاثين جنيها فى الشهر قيمة مرتبها.

وانتقلت الاسرة من البيت الكبير الى البيت الصغير..

وبيعت قطع الاثاث الفخم الواحدة بعد الاخرى..

واستغنى عن الخادم النوبى والطباخ واستعيض عنهما بخادم من ابناء البلد يرضى بالاجر الضئيل.

وبدأت تحس بثقل الحياة، وبدأ الجميع من حولها يفرضون عليها وحدها كل مطالبهم، وبدأ الحنو الذى احاطتهم به والتضحية التى تبذلها فى سبيلهم، ينقلبان الى واجبات ثقيلة يلحون عليها بها وكأنها مكلفة باعالتهم.. ورغم ذلك لم يكن احد يشكرها أو يعترف بفضلها أو يرحمها من مطالبه..

كانت امها دائمة الصراخ والتبرم..

وكان اخوها تصل به وقاحته ان يهددها ليبتز قروشا يصحب بها فتاته الى السينما..

ثم عادت احدى شقيقاتها بعد ان مات زوجها تحمل طفلا رضيعا على كتفها.. وأصبحت مكلفة بها ايضا، لأن الشقيقة العزيزة لا تستطيع ان تبحث عن عمل، ولا تستطيع ان تعمل لو بحثت.

ثقلت عليها الحياة.. حتى فكرت فى الانتحار، بل انها اقتطعت جزءا من مرتبها الضئيل واشترت به سما لا تزال تحتفظ به فى حقيبة يدها..

انسان واحد لم تكن تستطيع ان تتركه وحده على قيد الحياة..

ابوها..

ابوها الذى احبته بل عبدته وتشبهت به فى كل ايامها، والذى تشرق الدنيا كلها اذا ما ابتسم، وتعبس دنياها اذا ما عبس.. والوحيد الذى يفهمها ويفهم قلبها الكريم الحنون، ويحمد لها تضحياتها ويصل به الحمد الى حد ان يبكى لها..

ثم حدثت مصيبة اخرى..

مرضت امها مرضا خطيرا.. وعجزت مواردها القاصرة ان تقوم بعلاجها..

وهنا فقط تذكرت عبده بك..

تذكرته من اجل امها المريضة، وابيها العجوز، وشقيقها اللاهى، وشقيقتها العاطلة.

وكان عبده يتردد على البنك، وكان ينظر إليها طويلا، وحاول ان يحييها مرة أو مرتين فصدت تحيته فى اهمال رغم انها تعرف مدى نفوذه وتعرف - خلال الارقام التى تمر بها اثناء عملها - مدى ثروته.

وكان قد ارسل لها احدى زميلاتها يدعوها الى موعد.. فرفضت..

ولكنها قررت اخيرا ان تقبل..

وقالت له بصراحة وفى المرة الأولى التى خرجت فيها إليه، انها تريد ان تدفع نفقات امها..

ودفع عبده بك فى سخاء كبير يكفى لعلاج امها وجميع

افراد عائلتها لو مرضوا مدى الحياة!

وأصبحت عشيقته..

وكانت تعتقد ان الامر لا يكلفها الا ان تتنازل عن بعض تقاليدها، وان تتحمل طرقات رجل غريب فوق جسدها.. ولكنها عرفت ان الامر يكلفها اكثر من ذلك بكثير.. انه يكلفها آدميتها، يكلفها احساسها بالحياة.. وعرفت ان الذى يقول: «ان هذا هو اسهل طريق امام المرأة» لابد ان يكون رجلا لم يكتب عليه أبدا ان يسير فى هذا الطريق.

كان يصيبها الرعب عندما يقترب منها، كلما انفردا بجوار فراش، ورغم ذلك كان عليها ان تبتسم.. وكانت اعصابها تثور وصدرها يضيق كلما احتضنها بين ذراعيه، ورغم ذلك كان عليها ان تضحك، وفى خلاعة.. وكانت انفاسها تهرب وامعاؤها تنقلب كلما قرب فمه من فمها، ورغم ذلك كان عليها ان تحرك شفتيها بين شفتيه.. وكانت الحسرة على نفسها تشق قلبها كلما برز لها بكرشه الضخم المتهدل وساقيه الرفيعتين المقوستين، ورغم ذلك كان عليها ان تضم هذا الكرش وتتحمل ثقله.

كان عذابا.. جحيما.. فاستعانت عليه بالخمر تشرب منها حتى تقوى عليه وعلى نفسها.. ثم خيلت لها كرامتها ان تبحث عن الشبان ليمتعوا شبابها الذى يمتصه هذا العجوز الثرى، فبدأت تنتقى منهم من يروقها.. وقد يعلم عبده بهم أو ببعضهم، وقد يثور احيانا ويرجو احيانا، ولكنه ظل محتفظا بها، فقد كان جمالها الهادىء قد تسلل الى اعصابه حتى أدمنه.

ولم تعد تقوى على عملها فى البنك وهى تعيش هذه الحياة

فخرجت.. ولم يسألها احد من عائلتها لماذا خرجت.. وقد عرفوا عبده بك ولكن احدا منهم لم يسألها من هو، ولا ما مدى علاقتها به.. كانوا جميعا سعداء ما دام الرغد قد شمل حياتهم وما دام المال عاد يجرى وفيرا بين اصابعهم..

انسان واحد كان يفهم، وكان يتألم ولكنه كان يصمت.. صمت كل شيء فيه حتى عيناه فلم يعد يرفعهما اليها، ولم تعد تقوى على ان تواجهه بعينيها..

ابوها..



ومرت ذكرى هذه الايام كلها فى مخيلتها وهى تغادر المستشفى وقلبها لا يزال فى هذه اليد القوية التى تعتصر منه الشفقة والحنان.. الم يكفها شفقة على الناس..

انها لن تعود.

لن تعود الى هذا الشاب الضئيل ذى الرأس الكبير والوجه النحيل والجلد الاصفر المشدود..

ما لها وما له.. ليحبها أو لينتحر من اجلها فماذا يهمها منه ما دامت لا تريده.. هل خلقت لتسعد البشر جميعا وتسرى عنهم؟

تقوَّ يا قلب.. لا تضعف.. لا تشفق.. كن قاسيا انانيا عربيدا..

ولكن قلبها لا يستطيع ان يقوى.. انه لا يزال ضعيفا كريما..

وعادت اليه فى المستشفى..

وكان يجب ان تعود!

(٥)

عادت إليه فى المستشفى وفى يدها باقة اخرى من الورد.. وترددت لحظة قبل ان تطرق الباب.. وربما مر بخاطرها ان تعود من حيث اتت، فهى تعلم ان كل ما يربطها به هو شفقتها عليه، وتعلم ان قلبها الشفوق قد قادها الى مهاو كانت تستطيع ان تتجنبها لولا هذا القلب.. ورغم ذلك فقد طرقت الباب.. ودخلت!

كان شىء جديد قد دب فيه..

كانت عيناه تبتسمان فى هدوء وسكينة، كرجل ترك الدنيا واستراح فى الجنة..

وكانت على وجهه مسحة من الدعة المشرقة كأنه روح منطلق يعلو فوق آلام البشر..

وكانت شفتاه الباهتتان قد سرت فيهما عصارة النشوة يدفعها قلبه الخفاق فاصبحتا اقرب الى شفاه الاحياء..

حتى عظامه البارزة قد اختفت تحت اشراقة وجهه.

لم يعد له هذا الوجه البائس المكتئب والعينان الشاردتان

والشفتان المزمومتان.. كان شيء جديد قد دب فيه..

واستقبلها في لهفة، ورفع رأسه المضمد من فوق الوسادة وهو يمد ذراعه السليمة اليها، يلتقط بها كفها.. وقال وابتسامته تكاد تبتلع وجهه:

لقد كنت اعيش على امل عودتك..

لقد قلت لك ان هناك املا..

انه امل اكبر مني.. اخشى ان يكون سرابا..

ان السراب يجدد نشاط المرتحل..

اذن، فهو سراب!

وما هو الامل.. انه سراب.. ويوم يتحقق لم يعد سرابا لانه لم يعد املا، بل يصبح حقيقة..

انا لا افهم.. ماذا تعنين؟

كلنا لا نفهم، ولكننا نسير!

الى اين؟

لا احد يدرى الى اين.. ولكننا نسير وراء شيء.. وراء هذا السراب أو هذا الامل!

ومرت سحابة قاتمة فوق وجهه، وضاقت ابتسامته حتى اصبحت اشبه بالأنين، وقذف برأسه فوق الوسادة قائلا في همس:

لقد عشت ساعات في وهم..

قالت، وهي تجلس على حافة السرير وتضع كفها فوق كتفه النحيلة:

حاول ان تضعني في اوهامك، حتى يسعد كلانا..

انت اوهامى..

اذن لا تفقد الوهم، حتى لا تفقدنى..

اليس لى منك الا الاوهام؟

انى معك الآن بشخصى.. ليس هذا طيفى.. خذ.. امسك هذه الذراع.. انها ذراعى.. انها حقيقة وليست صورة من وهمك.. الا يكفيك هذا!

وابتسم وهو يتحسس ذراعها بكفه ويضغط عليها باصابع رقيقة كأعواد القش..

وانعكست ابتسامته فوق شفتيها وقالت:

المهم.. كيف حالك؟

واتسعت ابتسامته وهو يجيب:

الأهم.. كيف حالى عندك؟

قالت ضاحكة:

بخير وعافية!

وقامت ترتب اعواد الورد فى الآنية وهى تسأله عن حاله، وعن المعاملة التى يلقاها فى المستشفى وعن نصائح الطبيب، وعن الدواء الذى وصفه له.. الخ!

وكانت سعيدة.. ولم تكن تدرى سر هذه السعادة.. لم تكن تدرى ان الشفقة التى تحس بها نحوه هى سر سعادتها.. لان الشفقة ما هى الا نوع من الأنانية وحب الظهور وحب العطاء.. انها احساس بالقوة تجاه ضعيف.. احساس بالعظمة ازاء انسان ضئيل.. وهو احساس يرضى صاحبه ويملأ نفسه غرورا وزهوا فيخيل إليه انه سعيد..

وهى مثلا تكره عبده بك.. تكرهه لانه اقوى منها ولأنها تحس بحاجتها إليه، ولو انه كان اضعف منها واحست بحاجته إليها أكثر من احساسها بحاجته إليه، لما كرهته رغم شكله القبيح ورأسه الاصلع وكرشه المتهدل.. وانما كانت تشفق عليه وربما اعطته من نفسها اكثر مما تعطيه الآن..

كان هذا هو سر سعادتها..

ولكنها لم تكن تدرى لسعادتها سرا، انما انقادت لها وكل ما تدريه انها تشفق على هذا الشاب.

وطالت زيارتها له..

وطال الحديث بينهما..

وكان حديثا متقطعا لم يتسق بعد.. كان يروى لها بعض فقرات من حياته، وكانت تروى له فقرات متباعدة من حياتها. لم يقل كل شيء ولم تقل كل شيء.. ولكنها كانت تشعر فى حديثه بشيء افتقدته منذ زمن بعيد، أو منذ ان باعت نفسها لعبده بك لتنقذ امها المريضة واباها العجوز، واخاها اللاهى، واختها العاطلة.

كان يحدثها كسيدة كاملة.. حديثا ملؤه الاحترام والتعفف والحب النقى.. ولم تكن عيناه تطل على جسدها خلال حديثه ليفحص بها ساقيها ونهديها وخصرها، بل كانتا عينين خاشعتين هادئتين.. ولم تكن يده تمتد فى تعمد غير مقصود لتقع على ذراعها أو على فخذها كما يفعل عبده واصدقاؤه، بل كانت يدا عفة مهذبة.. وكان يلتقط كلماتها من شفتيها كعابد يقرأ فى كتاب ربه، ولم يحاول ان يجر حديثها الى ناحية خليعة أو يجبرها على ان تحشوه بالنكات المفتعلة، بل كان يتقبله

حديثا جادا نظيفا، حتى عندما كانت تغالى أو تكذب كذبة بيضاء لم يكن يداخله شك، بل كان يؤمن بما تقول ايمانا مطلقا يبدو على وجهه ومن خلال عينيه، وكأنها تحدثه عن عالم ضيق مجهول، لم يطرقه، ولم يكن له منه نصيب.

واشتدت سعادتها.. السعادة التى لم تكن تدرى لها سببا.

وانحنت على وجنته الباهتة التى تطل من بين الضمادات البيضاء تقبله قبلة جافة لم تبللها بريقها، ولم تتعد لمسة سريعة من شفتيها..

وخرجت..

وعادت فى اليوم التالى.. والذى يليه، ولم تعد تتردد قبل ان تطرق الباب..

فقد كانت سعيدة كلما عادت..

وبدأت تتولى شئونه، وترتب له حياته، كأنها أم ترسم خطوات وحيدها أو كأنها عضوة جديدة فى احدى الجمعيات الخيرية لا تزال مبهورة باغراض ومبادىء الجمعية متدفعة فى تحقيقها..

كانت تجمع ثيابه وتأخذها معها الى المكوجى لتعيدها نظيفة.

وكانت تناقش الطبيب كلما عاده وتقف على يد الممرضة وهى تضمد جراحه.

وكانت تستقبل اصدقاءه وتطوف عليهم بصندوق الحلوى، وكان يقدمها اليهم باسم «الآنسة يولند» ولا يزيد فكانوا يقلبون النظر بينها وبينه، ثم يبتسمون فى صدورهم، وبعضهم يحسن الظن فيعتقد انها صديقة له تعطف عليه، وبعضهم يسىء الظن

فيطلق لخياله العنان ويخرج لينثر حولهما اشاعات وقصصا، بطلتها الحسناء السمراء وبطلها القزم الاصفر الضئيل.

وكانت تعود إليه دائما وفى يدها شيء.. فاكهة.. شيكولاته.. ورد.. ثم بدأت تهديه ما يحتاج إليه.. اشترت له مرة «روب ديشامبر» ومرة اخرى جوارب من الصوف، ومرة ثالثة حذاء منزليا، ومرة رابعة مجموعة كبيرة من الثياب الداخلية.. الخ.

وكانت تشترى كل ذلك من النقود التى يدفعها لها عبده بك.. وكانت تشعر بسعادة وهى تشترى له.. سعادة لم تشعر بها وهى تنفق على عائلتها.. انها سعادة تغطى بها المرارة التى تعتمل فى نفسها منذ ان بدأت تمد يدها الى نقود عبده بك.. كانت تأخذ وهى الان تعطى.. كانت يدها هى السفلى والان لها اليد العليا.. بل انها اصبحت كعبده بك نفسه، لها قوته، ولها سطوته، ولها امكانية المنح والتكرم.. وأكثر من ذلك انها تنتقم من عبده عندما تنثر نقوده على رجل آخر، وتحس انها تستغفله وتكيد له..

ولكنها لم تكن تفهم كل ذلك، ولم تكن تفهم سر اقبالها على هذا الشاب، وسر اهتمامها به، وسر هذا الكرم الذى تحيطه به.. لم تكن تفهم نفسها ولم تكشف العقد النفسية المركبة التى تسيطر عليها كل ما كانت تحس به انها تشفق عليه..

اما هو..

كان فى شبه غيبوبة من السعادة.. كانت سعادته طاغية شلت تفكيره، فلم يعد يتساءل عن ماضيها، ولم يعد يذكر عبده بك وعلاقتها به، ولم يعد يذكر الشاب الوسيم المتسق العضلات الذى رآها فى صحبته مرة وهى تكاد تنطبع على

صدره، ولم يعد يسائل نفسه من اين تعيش ومن اين تأتيه بهذه الهدايا، بل انه نسي صورته التى رآها فى المرآة، نسي قوامه الضئيل وذراعيه الطويلتين فى غير اتساق، رأسه الكبير ووجهه النحيل وجلده الاصفر المشدود فوق عظامه البارزة، وعينيه القلقتين خلف نظارته السميكة وشفتيه الباهتتين، وضلوعه التى تشبه اعواد الجريد فى قفص بال من اقفاص الفراخ..

نسي كل ذلك، ورقد فى سريره نشوان مستسلما لسعادته الكبرى، مكتفيا بان يتبعها بعينى العابد وهى تنتقل امامه فى ارجاء الغرفة، فاذا ما جلست إليه تحدثه اصغى اليها بأذنى مؤمن يستمع الى آى الذكر الحكيم..

وكان فى سعادته حييا خجولا متواضعا الى حد التذلل.. لم يكن يكلفها شيئا، ولم يكن يطلب شيئا، وكان يتقبل ما تمنحه له من هدايا شاكرا فى حرارة حتى ليكاد يقبل قدميها، وكان يحتج كلما ساعدته فى مرضه وقامت له بما تقوم به الممرضة.. وكان يعتبر ذلك تنازلا كبيرا منها، ومنة لا يستطيع ان يردها أو يفيها حقها من الشكر..

ولكن السعادة بدأت تطغى به، وبدأ من حرصها على اسعاده يفرض لنفسه حقوقا عليها..

ثم بدأ العبد يتمرد ليصبح سيدا..

كان فى بادىء الامر يصر على ان ينادى الممرضة اذا ما اراد كوب ماء.. فكانت تسرع بها إليه قبل ان تأتى الممرضة..

ثم أصبح لا يحاول ان ينادى الممرضة، بل يرجوها فى توسل!

هل.. هل.. هل استطيع ان اطلب كوب مـاء.. انى ظمـآن.. شكرا.. الف شكرا

ثم أصبح يقول فى اختصار!

من فضلك كوب ماء!

ثم أصبح يأمر:

ادينى كوب ميه!

ثم أصبح يصرخ:

ماء!

وانساقت فى تدليله دون ان تدرى، كانت كأم تتحمل نزوات ابنها المريض فى صبر كريم، وكلما تمادى فى نزواته تمادت فى صبرها..

وقد اعاد له هذا التدليل بعض ثقته فى نفسه فتذكر انه عالم كبير، وتذكر كتبه التى قرأها، والمستقبل العريض الذى ينتظره، وكان قد بدأ يفيق من مرضه فارسلها الى بيته لتحضر له بعض الكتب وبعض المذكرات، ليستعيد بها ماضيه، ويعد عدته لمستقبله.

واخذت منه مفتاح الدار وذهبت..

انها دار لشاب اعزب من الطبقة الوسطى متفرغ لتحصيل العلم.. الاثاث مـرتب نظيف، ولكنه بال خـال من الذوق، والحجرات واسعة مريحة ولكنها عابسة مبتئسة كأنها تبكى على نفسها..

واحست فى هذا البيت بأنفاسها تضيق.. احست انها دخلت بقدميها الى سجن لم يحكم عليها به ولكنها اختارته

لنفسها..

ورغم ذلك لم تحاول الهرب، لم تتجه مباشرة الى مكان الكتب لتحملها وتفر، بل اخذت تطوف بحجرات السجن وهى تنقل قدميها فى بطء حزين، وتقف طويلا امام هذه النافذة، وتقف طويلا امام هذه الصورة وتقف طويلا امام هذا المقعد.. ثم بدأت تنقل قطع الاثاث فى مخيلتها وترسم للسجن صورة جديدة وكأنها تعده لاستقبالها.. هذه القطعة يجب ان تنتقل الى هنا، وهذه توضع هناك.. وهنا يجب ان توضع «ستارة» وهنا صورة.. وحجرة الطعام يجب ان تنتقل الى مكان حجرة النوم.. و.. و.. الخ..

وقضت فى البيت ساعات طوالا، وهى لا تستطيع ان تشعر بوجودها فيه أو بسبب يبقيها بين حجراته!

وخرجت تحمل كتبه اليه.. خرجت وكأنها تخرج الى الدنيا الفانية لتعود مرة ثانية الى مصيرها المحتوم!

وكانت لا تزال محتفظة بعلاقتها بعبده بك.. ولم يخطر لها سبب أو دافع لقطع هذه العلاقة.. كانت لعبده كل مساء وكلما ارادها ليذهب بها الى ميدان السباق، وكانت لا تزال مقدرة حاجتها إليه معتمدة على ماله الذى ينفقه عليها بسخاء.. كل ما هنالك انها كانت تحدثه كثيرا عن الاستاذ المريض الراقد فى المستشفى، وكانت تتحدث دائما فى حماس وكأنها تلقى محاضرة عن جمعية خيرية لانقاذ المرضى.. حتى انها دفعته - اى عبده - الى ان يرسل للاستاذ المريض أكثر من باقة زهر تحمل اسمه.

وكانت لا تزال مندفعة فى الشراب كل ليلة.. فهى لا تزال

فى حاجة الى ان تنسى كرش عبده وساقيه المقوستين وشفتيه الغليظتين عندما ينفرد بها فى جوار فراش.

وكانت لا تزال ايضا محتفظة بالشاب الوسيم الوجه المتسق العضلات، الذى يشعرها بشبابها ويرد لها ثقتها فى انوثتها وفى جمالها وفى حقها فى الحياة.. هذه الثقة التى تفقدها كلما وجدت نفسها بجوار عبده بك..

ورغم ذلك فهى لم تنس ابدا ان تذهب الى الشاب المريض كل صباح لتبقى معه الى ان ينتهى موعد الزيارة فى المساء.. ولم تنس ابدا ان تحمل له معها حاجة يحتاج اليها.. ولم تفقد ابدا صبرها وهى تتحمل نزواته.. ولم تكف ابدا عن تدليله.. ولم تنس ايضا ان تقبله هذه القبلة الجافة فوق وجنته الباهتة المطلة من بين الضمادات، كلما همت بمغادرته..

وفى احدى هذه المرات انحنت عليه لتقبله قبلتها الجافة، فاذا به يدير رأسه حتى تلامس شفتاه وجنتها.

واحست بشفتيه ترتعشان فى قبلة مترددة هيابة.. وكانت قبلته الأولى فوق وجنتها..

وابتسمت فى حنو وشفقة، ثم ضغطت بوجنتها فوق شفتيه، وقامت منصرفة..

ولم تكن المرة الأخيرة..

فقد ادار رأسه مرة اخرى الى ابعد ما ادارها فى المرة الأولى فاحست بشفتيه تلامسان شفتيها.

ووقفت شفتاها فوق شفتيه، لا تتحركان، وكأنهما احرجتا فى قبلة لا داعى لها، وتفكران كيف تتهربان منها.. وفجأة «طرقعت» بشفتيها قبلة مسموعة كأنها الصراخ، وابتعدت عنه

مسرعة كأنها تهرب من كابوس.

وكانت قبلته الأولى فوق شفتيها.

ثم أصبحت عادة ان تقبله فوق شفتيه..

ولم يكن يلاحقها بقبلاته أو يلح عليها بها، ولكنه كان ينتظر فى صبر ملحوظ الى ان تحين ساعة انصرافها فترتسم فى عينيه نظرة استجداء وتذلل تثير شفقتها فتنحنى عليه بشفتيها، ولا تكادان تقتربان منه حتى تلتمع فى عينيه نظرة اخرى ملهوفة جائعة، فيلتقط شفتيها بشفتيه كطفل جائع يلتقط ثدى أمه.

وكانت تشعر وهى تقبله شعور الممرضة وهى تحقن مريضها بالكلوروفورم لينام..

ولكنه تمادى..

لم يعد ينام تحت تأثير الكلوروفورم، بل أصبح يستيقظ وتستبد به يقظته. أصبح كلما همت بتقبيله يمد ذراعه السليمة ويحيط بها عنقها ويضغطها اليه ليبقى شفتيها فوق شفتيه.

ثم أصبح يستقبلها فى الصباح بهذه النظرة التى تعرفها والتى تستجديها قبلة، بعد ان كان يصبر حتى المساء حينما تغادره.

ثم أصبح لا يكتفى بقبلة الصباح وقبلة المساء.. بل أصبح يلاحقها بالحاحه طول اليوم، فكانت تستجيب له احيانا عندما تستثير شفقتها النظرة المستجدية الذليلة، واحيانا اخرى تقاوم نفسها وتقاوم شفقتها، فتنهره فى رفق..

الى ان شفى الاستاذ..

وتقرر ان يغادر المستشفى.

خرج بعد شهرين دون أن يفقد شيئا.. لم يفقد ذراعا ولا ساقا.. ولكنه خرج وقد زاد شيئا.

كانت معه، وذهبت به الى بيته..

كانت تحيطه بذراعها وهو يهبط سلم المستشفى، وكانت تتركه يستند على كتفها وهو يخطو نحو الطريق، ثم ساعدته بكلتا يديها وهو يضع نفسه داخل سيارة الاجرة التى حملته الى بيته..

كان صحيحا معافى، بل كان أكثر صحة وعافية مما كان عليه قبل ان يدخل المستشفى، فقد قضى فيه شهرين استرد خلالهما الدماء التى نزفها، والاعصاب التى مزقها، والانفاس التى قطعها فى لياليه الطويلة المسهدة، واسترد خلالهما كبده التى فتتها فى كؤوس الخمر، بل استرد نور عينيه الذى كاد ان يذبل بين صفحات الكتب عندما كان عالما، وبين تتبع الاطياف التى كانت تمر فى يقظته بعد ان أصبح عاشقا.

ولكنها كانت تصر على انه لا يزال مريضا وفى حاجة اليها، وكان يستسلم لاصرارها فى لذة ونشوة، فقد تعود منها هذا التدليل، وتعود ان يستغل قلبها الطيب، كما يستغل الطفل الشقى حنان أمه.

ودخلت به الى البيت، واجلسته على مقعد مريح، ثم جلست على الارض تحت قدميه تخلع حذاءه وكأنه قد فقد كلتا ذراعيه.

ومد كفه الهزيلة واخذ يمسح بها على شعرها، قائلا فى صوت خفيض:

لقد قضيت لياليّ الطويلة احلم بك، ولكنى لم احلم ابدا بكل

هذه السعادة، ولم اكن اجرؤ على ان احلم بها..

انى سعيدة بسعادتك..

وكانت كفه الهزيلة قد تركت شعرها وهبطت على عنقها تتحسسه، فنظرت اليه فى عتاب رقيق، ورفعت كفه ووضعتها بجانبه.

قال فى صوت يكاد يكون شجنا:

اترين هذه الغرفة.. لقد كانت يوما صومعة عالم يقضى لياليه فى ترتيل سطور الكتب.. ثم أصبحت معبد عاشق يهيم وراء طيف ليس له منه نصيب.. ثم أصبحت تضم مجنونا يحقد على الدنيا من اجلك.. من اجلك انت كرهت الناس وكرهت نفسى، وشربت الخمر لأنسى، ثم كفرت لانى لم استطع ان انسى..

وكانت كفه قد امتدت مرة ثانية الى شعرها، ثم هبطت تتلمس عنقها..

وعادت ترفع كفه وهى تنظر إليه نظرة اشد عتابا، وقالت فى حنو:

لا تحاسبنى على الماضى، ولكنى اضمن لك المستقبل.. سأكفر عن حبك لى.. هل هذا يكفيك؟!

قال وهو ينظر الى كفه التى رفعتها عنها والدموع تكاد تقفز من عينيه:

يكفينى ما قدمت لى.. انى لا استطيع ان اطمع فى اكثر منه..

لا تتكلم هكذا.. لا تغلق فى وجهينا باب الامل..

لا تكذبى.. فليس هناك امل..

لقد تحققت بعض احلامك فانتظر ان يتحقق ما بقى منها..

لقد كنت احلم بحبك، ولكنى لم استطع الا ان اثير شفقتك.. انك تشفقين علىّ، تشفقين على هذا القزم النحيل البارز العظام الذى كاد يقتل نفسه من اجلك..

انك رجل كامل..

وصرخ فى صوت اشبه بالعويل..

لست رجلا.. انا مسخ. انا شىء كريه.. أنا شىء تعافه المرأة.. تعافه كل امرأة ولو كانت فأرة.. ابعدى عنى اتركينى. ان شفقتك تؤلمنى أكثر من هجرك!

وبكى..

وامتدت يد قوية تعتصر قلبها الطيب وتغرز اصابعها فيه حتى تكاد تدميه، وقالت فى لهفة وهى تضغط على ساقيه بيدها:

ارحم نفسك وارحمنى.. استعد ثقتك فى نفسك.. انك رجل تصلح لكل امرأة.. ماذا ينقصك لتكون رجلا.. انك كامل فى كل شىء. علمك ومركزك وشبابك ومستقبلك وطيبتك.. كل ذلك يغرى كل النساء.. ماذا ينقصك؟

وسكت طويلا، ثم رفع عينيه اليها وقد التمعت فيهما نظرة بارقة حازمة وكأنه مقبل على شىء خطير، ثم انزلق من فوق مقعده حتى أصبح بجانبها على الارض، وقال فى صوت محشرج:

ينقصنى ان اضمك هكذا!

وضمها الى صدره بكل ما فى ذراعيه الهزيلتين من قوة، ثم اخذ يمسح وجهه بوجهها، ويسكت انفاسه المتلاحقة فى اذنيها، ويطوف بشفتيه فى رحلة سريعة مجنونة يتحسس خلالها عينيها وانفها وجبهتها وعنقها..

ثم رفع وجهه عنها ونظر إليها وهى مستسلمة له وعلى فمها ابتسامة مفتعلة، وهمس وكأن النشوة قد استبدت به فافقدته صوته:

وينقصنى ان اقبلك هكذا!

ووقع بشفتيه فوق شفتيها ينهشهما فى جنون كفأر جائع.. وهى جامدة وقد دبت البرودة فى اطرافها حتى استحالت الى قطعة من الثلج.

ثم انقض عليها، وانفاسه تفح كأنها ثعابين اهاجها دبيب وحش..

ودفعته عن صدرها، وقامت وقد انقبض قلبها، وضاقت انفاسها، وثارت عليها اعصابها، حتى كادت تصرخ تسب الدنيا وما فيها، ولم تتمالك من ان تخبط الجدار بقبضتها، ثم تسند رأسها إليه، وكأنها لا تريد أن ترى وجهه ولا ان تريه وجهها..

وتمنت على الله ان تبكى لعل دموعها تريحها من انقباضها..

ولكنها لم تبك، وسمعته يقول وهو لا يزال فى جلسته على الارض، بعد ان استرد انفاسه:

آسف.. لا ادرى ماذا اقول.. ولكنى اعدك الا يتكرر هذا منى.. وان اردت فانى اعدك الا اريك وجهى مرة ثانية.. ولم

تجبه، وكأن الشفقة قد هربت من قلبها لحظة فلم تعد تشعر به، أو كأنها اكتفت من كلماته التى تثير فيها الشفقة فلم تعد تسمعها..

وظلت مستندة برأسها على الجدار، وهى تخبطه بقبضتها بين الحين والحين، وكأنها تريد ان تحطم شيئا تكرهه.

ثم هدأت قليلا.. وادارت له راسها، وقالت فى لهجة آمرة وكأنها تريد ان تنتهى من امر:

قم..

ورفعته عن الارض بذراعها، وسارت به نحو فراشه ووضعته فيه، ثم احكمت حوله الغطاء!

لم تتكلم كلمة واحدة، بينما كان ينظر اليها دهشا..

ثم ابتعدت عنه، واصلحت نفسها دون أن تنظر الى المرآة، ثم اطفأت النور فى الحجرة، وخرجت دون ان تقبله كما اعتادت ان تقبله كلما فارقته، ودون ان تلقى عليه حتى بكلمة تحية..

خرجت..

كانت متصلبة كعمود من الحجر، لا تستطيع ان تفكر فى شىء أو تتذكر شيئا..

وعندما جلست فى سيارة الاجرة التى نادتها، منّ الله عليها، فبدأت تبكى..

واراحها البكاء..

وكانت تعلم انها لا تبكى شفقة عليه، بل حسرة على نفسها.

(٦)

ولم تعد اليه فى اليوم التالى وانقضت ايام عشرة وهى لا تعود اليه..

ولكنها لم تستطع ان تتناساه أو تهمله.. كانت صورته تقفز دائما امام عينيها، وكانت كلما مر بخاطرها احست بصدرها يضيق واعصابها تنقبض، واحست بالغيظ والحقد.. الغيظ من نفسها والحقد على نفسها..

كيف سمحت له ان يستغل شفقتها الى هذا الحد؟

وكيف سمحت لشفقتها ان تسوقها الى هذا المدى؟

كيف تستسلم لرجل لمجرد انه يثير شفقتها..

وقررت - بعد ايام - ان تذهب اليه لتوقفه عند حده، وتضعه فى مكانه منها، وتفهمه فى حزم انها قد تحنو عليه ولكنها لن تحبه، وأنها قد تكون له صديقة ولكنها لن تكون له امرأة، وانها قد تخفف عنه آلامه النفسية ولكنها لن تقبل منه ان يسكب هذه الالام فى جسدها..

يجب ان يفهم انها اسمى من ان يصل اليها، وانها ليست

من هذا الصنف من النساء الذى يبتذل جسده لكل رجل ولأى رجل..

ويجب ان يفهم انه اضعف واقل من ان يطمع فيها..

ويجب ان يتقبَل حنانها كما يتقبل الفقراء معونة الشتاء..

وذهبت.. ولم تكن تدرى انها كانت كالمقامر الذى يتمادى فى المقامرة طمعا فى تعويض خسارته.. لقد اعطته الكثير من حنانها وشفقتها وعصرت قلبها الطيب لترد له انفاسه الهزيلة وتهبه بعض السعادة التى كان قد يئس منها، حتى اعادت له الحياة وبدأ يبدو رجلا كاملا.. ومن حقها بعد هذا ان تحتفظ بهذا الرجل الذى خلقته من حنانها وشفقتها وطيبتها.. من حقها ان يكون لها.. ان يكون لها خادما أو صديقا أو أى شىء.. ولكن يجب ان يكون لها..

ذهبت..

وكتمت صرخة خافتة عندما وقعت عيناها عليه..

كان كالشبح الهزيل الاصفر.. عيناه غائرتان فى عظام وجهه وقد احاطت بهما هالتان سوداوان كمصباح فرغ منه الزيت ولم يبق من ضوئه الا ذبالة تحرق نفسها وسط دخان كثيف اسود يكاد يخنقها.. وشفتان ترتعشان في ضعف كأنهما تتمتمان بالشهادتين الاخيرتين وكأنهما تخافان الموت.. وعظام مكومة فوق مقعد كبير لا تكاد تبين فوقه، وكأنها عظام هيكل آدمى استغنى عنه المعهد العلمى بعد ان اجرى عليه تجاربه فالقى به فى ركن مهمل.

وادار لها رأسه الكبير فى بطء واعياء، ورفع اليها عينيه الغائرتين ثم مد اليها ذراعين مرتعشتين هزيلتين، واشتدت

ارتجافة شفتيه الباهتتين.. ثم حاول ان ينطق فلم يستطع..

وسقطت ذراعاه الى جانبه، وسقط رأسه الكبير فوق صدره، وسقط جفناه فوق عينيه.. وسكن كل شيء فيه حتى الحياة..

وصرخت..

والقت حقيبتها من يدها، وهرعت اليه تتحسسه، فاذا بالحمى تلسع كفها، وانحنت عليه تتسمع دقات قلبه فاذا بها لا تكاد تلتقطها اذن..

وحملته بين ذراعيها وهى لا تكاد تشعر له بثقل، ووضعته فى فراشه..

ثم دارت حول نفسها، لا تدرى ماذا تصنع..

ثم هرعت خارج البيت، وجرت فى الشارع كالمجنونة تبحث عن تليفون..

واتصلت بالطبيب..



ومن يومها اصبحت له..

تركت عبده بك، وتركت اصدقاءها ونسيت عائلتها، وجلست بجانب فراشه طول النهار، ورقدت بجانبه على نفس الفراش طول الليل..

وأصبحت سيدة البيت..

وعاملها الطبيب، والاصدقاء المعدودون الذين يترددون عليه، والجيران، والخادم، على انها سيدة البيت.. ولم يحاول احد منهم ان يسائل نفسه ماذا تكون له أو ما هى العلاقة التى

تربطها بالاستاذ المريض، فقد اخفى كل هذا اعترافهم بجميلها عليه، ثم انه - حتى وهو فى صحته - لا يمكن ان يكون مطمعا لامرأة مثلها لها جمالها، واناقتها، وطيبتها التى تبدو عليها دائما.

وحققت الصورة التى رسمتها للبيت عندما دخلته لأول مرة.. فنقلت قطع الاثاث كلا مكان الاخرى.. واشترت آنية للزهر توضع فى هذا الركن، وتمثالا صغيرا يوضع هناك.. ثم خصصت لنفسها غرفة، نقلت اليها من بيتها بعض الاثاث..

وكانت تنفق من النقود التى وجدتها مع الاستاذ، ثم بدأت تنفق من النقود التى معها، ثم بدأت تبيع قطعا من حليها لتستمر فى الانفاق دون ان تفكر فى الالتجاء الى عبده بك وطلب معونته..

ولم تكن فى كل ذلك اسعد مما كانت عليه عندما كانت بجانبه وهو فى المستشفى.. سعادة العضوة النشيطة فى احدى الجمعيات الخيرية.. ولم تكن تسائل نفسها عن مصيرها فى هذا البيت، وعن نهاية تماديها فى ربط نفسها بهذا الاستاذ المريض.. وكانت تخاف هذا التساؤل وكانت تتهرب منه.. كانت تغرق نفسها فى هذا البيت وتغلق كل باب يفتحه امامها تساؤلها للهرب منه.. كان يبقيها فيه شىء اقوى منها، وشعور ترتاح اليه حينا عندما يخيل اليها ان هذا البيت بيتها وهى التى لم يكن لها ابدا بيت هى سيدته، وان هذا الرجل المريض رجلها وهى التى لم يكن لها ابدا رجل تمتلكه.. ثم تنفر حينا آخر عندما ترى ان البيت لا يمكن ان يكون بيتها، وان الرجل لا يمكن ان يكون رجلها لانها لا تحبه..

وتماثل الاستاذ للشفاء..

وقال لها يوما:

انى ادين لك بحياتى مرتين..

قالت ضاحكة:

انى متنازلة عن الدين.. هاك صك التنازل!

وقبلته على جبينه قبلة جافة سريعة..

قال:

لا اريد ان تتنازلى عن دينك.. اريد ان اكون ملكا لك فربما تحرصين علىّ، مادمت لا اطمع ان تكونى ملكا لى فاحرص عليك..

قالت وهى لا تزال تضحك:

انك انانى.. كيف احرص عليك وانت لا تحرص علىّ؟

قال:

لان لديك ما تشترينى به.. اما انا فلا املك شيئا اشتريك به.. انى قانع بان اكون عبدا لك..

قالت:

اذن.. خذ الدواء ايها العبد!

وضحكت.. وكأنها سعيدة بأن يكون لها عبد اشترته بحنانها وطيبتها وشفقتها..

وغادر الاستاذ الفراش.. وبدأ يذهب الى مكتبه..

وحدثها كثيرا عن عمله، وعن مؤهلاته وعن الابحاث التى اعتاد ان يعدها للشركات الكبيرة..

وبدأت تتدخل فى عمله هذا.. كانت تشجعه، وكانت تبصره،

وكانت تدله على الاصدقاء الذين ينفعونه، وعلمته كيف يستغل علمه وابحاثه وخلصته من حيائه ومن انطوائه على نفسه، فعرف كيف يتحدث، وكيف يصادق الناس، وكيف يستغل صداقتهم وكيف يرتفع بهم..

ولم يعد العالم المتفرغ لعلمه.. بل أصبح عالما يبيع العلم ويزن سطوره بالذهب..

ولم يعد العلم فى نظره مجرد سطور يحشو بها رأسه، بل أصبح شيئا يضعه فى خدمة ذكائه ليحقق به مطامعه.. ولم تعد المبادىء التى قرأها شيئا يؤمن به، بل أصبحت شيئا يستغله ويرتفع به.. ثم عرف ان الطريق الى المجد هو ان تخدم الاشخاص لا ان تخدم المبادىء.

وبدأ يرتفع بسرعة.

وحدث كل هذا التطور خلال شهور قليلة.. وكانت دائما معه فى البيت..

كانت تنتظره حتى يعود من عمله فى وزارة الخارجية، ثم تجلس جانبه وهو يعد ابحاثه.. ثم بدأت تبدو معه فى المجتمعات وتدعو له اصدقاءه الى البيت وتنتقى شخصيات كبيرة تتودد اليهم لتجذبهم اليه وتضعه بينهم..

ونظر الناس اليهما فى دهشة.. وتساءلوا: هل تحبه؟

ولم يصدق أحد انها تحبه..

وقهقه عبده بك عندما رآها معه، ولم يستطع ان يصدق انها تركته وتركت السخاء الذى كان يسبغه عليها، من اجل هذا الشاب الضئيل الهزيل.. وقال ساخرا: انها مجنونة!

اما هما، فلم يشعرا بتساؤل الناس، ولم يشعرا بنفور

الجيران منهما، وانقطاعهم عن زيارتهما.. وعندما قررت ان تنتقل الى بيت جديد، لم يكن لهذا الانتقال من سبب الا رغبتها فى ان يكون له بيت أكثر اناقة، وافخم مظهرا يليق بالنجاح الذى يحرزه وبالاصدقاء الكبار الذين يترددون عليهما، وبالدخل المالى الواسع الذى بدأ يجنيه من اتصاله بالشركات واعداد البحوث لها..

ولم يكن بينهما حديث عن الحب..

كانت تعرف انه يحبها، وكان يعرف انها لا تحبه.. ولكنه لم يجرؤ على ان يفاتحها مرة اخرى بحبه، حتى لا تهجره كما هجرته فى المرة الأولى، ولم يجرؤ على ان يرفع شفتيه الى شفتيها مكتفيا بقبلاتها السريعة الجافة التى تطبعها على وجنتيه بين حين وآخر..

كانا يقضيان الامسيات الطويلة فى حديث عن الناس وعن الاعمال وعن النجاح الذى يمكن ان يحققه.. وكانت تهوى الاستماع إليه، فحديثه دائما متزن عاقل يفتح امامها ابوابا تجهلها، وكان يهوى الاستماع اليها فحديثها ملىء بالارقام عن ثروات الناس التى لا تزال تعيها منذ كانت موظفة فى بنك باركلين، وملىء بالتجارب العديدة عن اخلاق الكبار والصغار الذين عرفتهم، وملىء بالحرارة التى تدفعه دائما الى الامام.. حرارة لا تنبعث عن ايمان بمبدأ، أو عن ايمان بوطن، ولكن عن ايمان مطلق بالنجاح.. انها لا تؤمن بالنجاح، ومقياس النجاح الوحيد فى نظرها هو مدى الربح المادى الذى يجنى من ورائه..

كان هذا هو كل حديثهما، وكل ما بينهما.. فاذا ما انتهى بهما الليل قامت وانحنت على وجنته تقبله قبلة المساء، وتركته

الى غرفتها..

وكان الامل يتيقظ فى صدره كل مساء، ولكنه تعود كيف يكبته..

وكانت نظرة من التوسل تطوف بعينيه كلما همت بمغادرته، ولكنه تعود كيف يطويها بين جفنيه..

وكانت الذئاب تعوى فى اذنيه احيانا وتمزق اعصابه وتشد لحم بدنه، ولكنه تعود كيف يكتم عواء الذئاب وكيف يخمد اعصابه، وكيف ينسى لحم بدنه.. كانت تجلس امامه فى ثوب منزلى يكشف عن بعض مفاتنها فلا يرى الا وجهها وكانت تمر امامه وهى خارجة من الحمام ملتفة فى «البرنس» وقد عقدت «البشكير» فوق رأسها، وفحت السخونة من حولها، فلا يرى ايضا الا وجهها..

عوّد نفسه كل ذلك حتى لا يفقدها مرة ثانية، فيفقد معها السعادة التى احاطته بها، والثقة التى تملأ بها نفسه، والحياة التى وهبتها له..

وكان يفرغ طاقته البشرية كلها فى شحذ ذكائه للوصول الى النجاح الذى تريده له.. وقد خطا خطوة اخرى كبيرة نحو هذا النجاح..

استقال من الحكومة، والتحق مستشارا لاحدى الشركات الكبرى..

واقامت له الشركة حفلة تكريم بمناسبة تعيينه، دعت اليها اعضاء مجلس الادارة وكبار الموظفين وزوجاتهم وكريماتهم، ودعتها ايضا.. وكانت تدعى الى مثل هذه الحفلات بصفتها الشخصية وباعتبارها صديقة الداعى لا بصفتها صديقة

المدعو..

وجلس الاستاذ فى صدر المائدة الرئيسية وقد احاط به مكرموه، واحاطت به عيون السيدات والآنسات، تتطلع الى هذا الرأس الكبير، والوجه النحيل، والى هذه الشخصية المتواضعة التى تبدو عليها سيماء العلماء، والتى خطت هذه الخطوات الكبيرة حتى أصبحت شخصية لامعة تتحدث عنها الصحف وتمتدح عبقريتها المجتمعات.

وربما كانت عيون السيدات والآنسات تحيط به لمجرد الاستطلاع.. وربما كانت من بينها عيون تشفق عليه وتشفق على هذا الراس الكبير بما فيه من اثقال العلم، بل ربما كانت من بينها عيون ترمى حوله شباكا لتصطاده زوجا فهو يصلح ليفتح بيتا حتى وان لم يملأه، ويصلح لتستند عليه امرأة حتى ان لم تتباه به.

ثم ان له من نفوذه الذى اكتسبه بصداقاته الناس الكبار، وله من مركزه الاجتماعى والاقتصادى الذى وصل اليه اخيرا ما يعوض المرأة عن ضآلة شبابه ونحول مظهره.

ولاحظت يولند وهى جالسة بعيدة عنه الى مائدة فى احد الاركان، هذه النظرات التى تحيط به، والتقطت اذناها بعض احاديث النساء التى تدور حوله..

واحست بالضيق يجثم على صدرها..

لماذا ينظرن اليه، هؤلاء النسوة؟ ما لهن وماله؟ هل عرفنه من قبل.. هل عرفنه عندما كان مريضا مهملا يائسا من حياته ومن مستقبله؟ هل سهرت عليه احداهن كما سهرت هى عليه، هل تحملته احداهن كما تحملته هى؟! هل جربت احداهن شفتيه

الباهتتين فوق شفتيها؟ هل تعذبت احداهن وهى تحمل جسده النحيل وعظامه الناتئة فوق جسدها كما تعذبت هى؟!

واشتد بها الضيق، والتفتت اليه فاذا به غارق حتى اذنيه فى حديث طويل مع جارته الحسناء.. حديث يتخلله ضحك ويتخلله همس ويسوده الابتسام..

واحست بلسعة قاسية فوق قلبها كادت تقفز بها من مكانها.

ما شاء الله!

هل بدأ يغازل.. هذا القزم؟!

وتمنت لو انقضت عليه وضربته فوق رأسه الكبير حتى يفيق لنفسه ويقطع حديثه مع جارته الحسناء!

وانتهى الحفل وقد كادت انفاسها تنتهى معه.

وفى الطريق الى المنزل كان سعيدا وكانت شقية لا تدرى لشقائها سببا الا انها تحاول ان تخفيه بتجاهلها له..

قال لها وقد لاحظ طول صمتها:

لقد كانت حفلة موفقة..

طبعا!

ان رجال الشركة كرماء..

ان زوجاتهم اكرم!

ان زوجة المدير سيدة كاملة حقا.. وحديثها ممتع!

لقد لاحظت تمتعك به..

انها دعتنى الى العشاء فى الاسبوع المقبل!

وهنا انفجرت فى وجهه وكأن بركانا ثار فى صدرها:

اسمع.. انني لن اسمح لك بمغازلة امرأة فى وجودى سواء كانت زوجة المدير أو زوجة البواب.. يجب ان تحترم وجودى.. يجب ان تعرف مكانك منى.. يجب ان تتعلم الادب..

انى لم اغازل احدا.. لقد كنت ابادلها الحديث.. هذا هو كل شىء!

انك كنت تأكلها بعينيك..

وابتسم ابتسامة واسعة وقال وهو يمسك بكفها ويضغط عليها:

انك تغارين علىّ. انى سعيد!

وجذبت كفها من كفه فى عنف، وقالت وهى تكاد تصرخ:

اغار عليك انت.. ماذا فيك حتى اغار عليك.. لا ايها المغرور.. كل ما هنالك انى اعرف ان الرجال كلهم ذئاب، ولم اكن اتصور انك انت ايضا تستطيع ان تكون ذئبا.

قال وقد سحب ابتسامته وبدا عليه الغضب:

اننى رجل!

نسيت هذا!

كان يجب ان اذكرك به!

تذكرنى بالرجل، ام تذكرنى بالذئب؟

كليهما..

انى لن اتحملك ذئبا..

لقد قلت ان كل الرجال ذئاب.. فاذا اردتنى رجلا فيجب ان تتحملينى ذئبا!لقد استغنيت عن كليكما، الرجل والذئب!

وادارت عنه وجهها غاضبة..

ووصلا الى البيت، وانصرفت الى حجرتها دون ان تحييه تحية المساء. وحاولت ان تنام فلم تستطع، وجلست فى فراشها وفى رأسها زوبعة من الفكر تعصف بعينيها فلا تستقران هل هى حقا تغار عليه؟

وهل هى تحبه حتى تغار عليه؟

لقد كانت تشفق عليه.. انها تعلم ذلك.. ولكنه الآن لا يثير الشفقة، وليس فى حاجة الى شفقتها، بعد ان أصبح شخصية لامعة، له مركزه وله نفوذ وله مال يستطيع - مع بعض التساهل - ان يشتريها به كما اشتراها من قبله عبده بك.. ثم ان مظهره وحده لا يكفى لاثارة شفقتها، وقد كان عبده اقبح منه مظهرا واثقل منه على جسدها، ورغم ذلك لم تكن تشفق عليه..

اذن فليست الشفقة التى تربطها به..

هل هو الحب؟ وهل يمكن ان تحب هذا المخلوق؟

وان كانت تحبه فلماذا تتمنى دائما رجلا آخر.. رجلا كاملا يملأ عينيها ويشبع جسدها؟ ولماذا تندفع الى مقابلة هذا الشاب الآخر الذى اعتادت ان ترضى به شبابها بين الحين والحين؟

وان لم تكن تحبه، فما سر هذه اللسعة التى احست بها عندما رأته يحادث زوجة المدير، وما سر هذا الضيق الذى ملأ صدرها عندما احاطت به عيون النساء، بل لماذا بقيت فى هذا البيت حتى اليوم، ولماذا تفنى نفسها فى تدبير حياته، وتنظيم شئونه وفى دفعه الى الامام ليحقق اطماعه، ولماذا تحرص على الا يعرف انها تخونه مع رجل آخر فتتعمد الا تذهب الى هذا الآخر الا فى اوقات عمله، بل لماذا لم تفكر فى ان تستفيد من

عشرته فتستولى على كل دخله وتستنزف نقوده لترسل بها الى عائلتها كما كانت تفعل مع عبده بك؟

انها لا تدرى..

لا تدرى، لانها لم تتبين الخيط الرفيع.. الرفيع جدا.. الذى يفصل بين الحب وغريزة التملك..

انها تمتلكه، ويجب ان تبقى عليه لنفسها.. يجب ان يكون لها.. هذا الشيء الذى صنعته، هو من حقها وحدها، ولن تستولى عليه امرأة اخرى.. ستقتله او تقتلها قبل ان يفلت من يدها..

هذا النجاح الذى يتمتع به هو نجاحها..

وهذا المركز الذى ارتفع اليه، هو مركزها..

وهذا النفوذ هو نفوذها..

انها تمتلكه كله.. تمتلكه رجلا.. وتمتلكه ذئبا.. ولن يكون ابدا رجلا لامرأة اخرى أو ذئبا لامرأة اخرى!

ووجدت نفسها تنهض من فراشها.. ثم تقف امام المرآة وهى فى ثياب النوم، وتنظر الى جسدها الشاب، والى قوامها المشوق كغصن الورد، والى نهديها المطلين فى كبر وتخايل، والى شفتيها اللتين تترقرق فيهما الاحلام.. ثم تنهدت نهدة عميقة كأنها حسرة.

وخرجت حافية القدمين واتجهت الى غرفته تسير فى بطء وكأنها تسير الى قضاء محتوم..

وفتحت الباب ودخلت..

واغلقت الباب وراءها، وكأنها اغلقت باب الدنيا!

(٧)

وسارت بهما الحياة..

ومنحته كل شيء.. خلقت منه الرجل واشبعت فيه الذئب!

وقد استطاع ان يكون رجلا ناجحا، ولكنه كان دائما فأرا تنتابه نوبات من الجوع فيخرج من جحره ويتساب بين ذراعيها ليقرض فى جسدها باسنانه الرفيعة، فتسرى فيها قشعريرة باردة، وتشعر كأن امعاءها تكاد تنقلب، ثم تقسو على نفسها وتتحمله صابرة، وتترك له شفتين هربت منهما الحياة، وجسدا كأنه لوح من الثلج لا يتحرك ولا ينطق باحساس ما، بينما العرق البارد يتفصد من جبينها كأنه دموع قلبها..

فاذا ما انزاح من فوق صدرها طغت عليها نوبة من الكره العنيف..

كرهته.. وكرهت نفسها..

وتضغط الكراهية على اعصابها فتثور وتصرخ فى وجهه لسبب تختلقه، بينما يتكمش على نفسه فى ركن من الفراش .

يسترد انفاسه التى مزقها بين ذراعيها، ويتحمل صراخها فى هدوء وصمت..

ورغم ذلك ظلت تحرص على الاحتفاظ به..

انه ملكها.. هى التى صنعته.. وهى التى صنعت هذا النجاح الذى يلاقيه..

انه ملكها، ويجب ان يبقى لها حتى لو كرهته فى هذه الليالى التى يخرج فيها من ثيابه فأرا جائعا ينساب بين ذراعيها

وقد تمادت فى الحرص عليه حتى أصبحت تسأله عن الاشخاص الذين قابلهم وتتأكد انه لم يكن بينهم امرأة.

وأصبحت تصر على ان تخرج معه كل مساء، وان تدعى معه الى كل سهرة، وان تجلس بجانبه فى كل مكان..

وأصبحت تعلن فى محادثها انه رجلها وانه ملكها، وتخاطبه بلهجة المالك وبلهجة السيدة لرجلها..

وعرفت ان الشركة قد عينت له سكرتيرة وتصورتها حسناء، فأصرت على ان يطردها ويستبدلها بسكرتير..

والتقيا يوما بزوج وزوجة، وتحادثوا مليا، ثم دعاه الزوج الى البيت، ووجه الدعوة فى أسلوب يفهم منه انه يدعوه وحده ولا يدعوها معه.. واحس بالحرج واحست هى بأن كرامتها اهينت.. كيف يدعونه ولا يدعونها معه وهى التى صنعته؟

وانتظرت حتى انفردت به واصرت على ان يرفض الدعوة.. ورفضها..

وكان يعتقد انها تغار عليه، وكان يعتقد ان الغيرة هى اقوى

مظاهر الحب.. انها تحبه، والا لما اختارته من دون البشر اجمعين لتكون خليلته.. انها تحبه والا لما وهبته شبابها وايامها ولياليها، وحنت عليه وهو مريض، وارتضته وهو فقير، وتحملته وهو قزم لا يمكن ان تطمع فيه امرأة..

انها تحبه. هكذا كان يعتقد، وهو اعتقاد ملأ نفسه بالثقة والزهو، وجعله يتحمل غيرتها عليه سعيدا بها مستسلما لها، كأنه دون جوان من واجبه ان يراعى شعور النساء اللاتى يقعن فى غرامه!

ولكن هذه الغيرة اشتدت حتى بدأت تقيد حياته العامة وتؤثر فى عمله، فحاول ان يخفف منها بمناقشتها، ثم بدأ يكذب عليها فاذا ما دعى الى حفلة ادعى انه على موعد خاص بعمل، واذا ما التقى بمجتمع يضم نساء ورجالا اغفل ذكر النساء، ثم بدأ يتحداها ولا يستسلم لاصرارها فترتد تحديه عذابا تصبه على رأسه وتشعل فى البيت جحيما من الكره.

وكان خلال ذلك يرتفع فى خطى سريعة نحو النجاح، فأصبح مستشارا لاكثر من شركة، ثم أصبح مساهما، ثم اصبح عضوا فى مجالس ادارة اربع من هذه الشركات، وأصبح شخصية اقتصادية هامة يتحدث عنها الناس، ثم أصبح قريبا جدا من مقعد الوزارة.

وكان كلما ارتفع احست به يرتفع عنها ويفلت من بين اصابعها واحست بعيون النساء تلتف حوله لتغتصبه منها. فتشتد فى الحرص عليه، وتشتد فى محاسبته وتضييق الخناق عليه.

وذهبا يوما الى احدى الحفلات الخيرية العامة.. وقام

يرقص مع فتاة مصرية ابنة احد اصحاب الشركات التى يعمل فيها وطال رقصه معها، وطال الحديث بينهما خلال الرقص، بينما كانت ترقبهما بعينين تندلع منهما النار.. ثم لم تتحمل فانطلقت الى داخل حلقة الرقص، واقتربت منهما ولمست كتف الفتاة باصابعها وقالت وهى تتظاهر بالابتسام:

هل تسمحين.. لابد انه اتعبك، دعينى احمله عنك الى نهاية هذه الرقصة فقد تعودت تحمله!

ونظرت إليها الفتاة فى دهشة ثم انقلبت دهشتها الى ازدراء، ثم تركته لها..

واحتقن وجهه النحيل حتى كادت الدماء تصبغ شعر رأسه، وجذبها من ذراعها على قدر ما فيه من قوة وخرج بها.

وعادا الى البيت، وقال بعد ان صمت طول الطريق، وهو يحاول ان يضبط اعصابه الثائرة:

ارجو ان تفهمى اننا لسنا زوجين، وان هناك تقاليد يجب ان تراعيها..

وانفجرت وهى تقهقه فى عصبية:

اخيرا بدأت تتحدث عن التقاليد.. اين كانت التقاليد طوال هذه الاعوام؟

انها دائما قائمة..

ولكنك لم تكن تراها.. ماذا فتح عينيك عليها اليوم؟

المجتمع..

لقد كنا نعيش دائما فى هذا المجتمع..

ولكنه لم يعترف بنا ابدا، وانما كان يكتفى بتجاهلنا..

انه مجتمع جبان، تستطيع ان تفرض عليه ارادتك ان كنت قويا.. ولكنك اضعف من ان تكون لك ارادة

انى لا استطيع ان افرض على المجتمع خطاياى..

ان هذا المجتمع مجموعة من الخطايا.

ولكنه يداريها.

لا يداريها الا الضعفاء..

انا الآن ضعيف..

وأنا خطيئتك..

ان حبنا هو خطيئتنا..

اذن لندع السماء تباركه.. تزوجنى!

وبهت واضطرب لسانه بين شفتيه وحاول ان يتكلم:

ولكن.. اننا..

وصرخت فى وجهه مقاطعة:

لا تتكلم والا قتلتك.. انا التى تأبى الزواج منك وليس انت.. لن اتزوجك ولو عصرت دماءك كلها تحت قدمى..

انهار تحت قدميها وقال وهو يحاول ان يمسك بكفها، وعيناه تتوسلان إليها:

لا تحطمى كل شىء.. انى احبك وقد خلقت من هذا الحب انسانا يشعر بالحياة ويستطيع ان يعمل وان ينجح، ومن اجل هذا الانسان الذى خلقته اطالبك بان تصونيه وان تدارى خطيئته..

وأنا.. ما نصيبى؟

انت ربى، والرب يعطى ولا يأخذ، ويكفيه عبادة خلقه، وأنا

اعبدك..

ان الرب يطالب الناس بان يعبدوه جهرا، وانت تعبدنى سرا!

ان العبادة فى السر هى اقرب العبادات الى الله.. هى التصوف وقد تصوفت فى حبك!

ان العبادة ليست خطيئة، وانت تعتبر حبك لى خطيئة..

لست أنا، ولكنه المجتمع.. انه مجتمع من الكافرين، وأنا الوحيد المؤمن بك.. بربى!

كن نبيا وانشر دعوتك بين الناس حتى يؤمنوا بحبنا..

انى اضعف من ان اكون نبيا:.

ومن قال لك انى استطيع ان اكون ربا؟

لقد اعدت لى الحياة مرتين، وخلقت منى.. من هذا القزم.. عملاقا قويا، ولا يستطيع كل ذلك الا إله..

ان الإله الذى يستطيع ان يخلق، يستطيع ايضا ان يميت؟

وازاحته من تحت قدميها وهبت من على مقعدها غاضبة، ودخلت الى حجرتها وصفقت الباب وراءها، وتركته منكفئا على الارض، يريد ان يبكى فتتخلى عنه دموعه، يريد ان يهرب من هذا البيت فتتخلى عنه ساقاه، ويريد ان يحطم هذا الباب الذى صفقته وراءها لتتخلى عنه ذراعاه.

وجلست فوق فراشها وقد عقدت ذراعيها حول ركبتيها، كما اعتادت ان تجلس دائما عندما تثور زوبعة فى رأسها..

ماذا تريد منه؟

انها قطعا لا تريد ان تتزوجه، وقد كانت صادقة عندما قالت

له انها لن تتزوجه ولو عصر دماءه تحت قدميها، فهى رغم كل ما مر بها من صنوف الحياة لا تزال تؤمن بقدسية الزواج، ولا تزال تحترم شعائره، ولا يزال فيها شيء من طهارة الحياة الزوجية التى جمعت بين ابيها وامها وتربت فى ظلالها، ولا تزال تعتقد ان الزوج يجب ان يكون آخر رجل فى حياة المرأة..

وهذا الرجل لا يمكن ان يكون آخر رجل فى حياتها، بل انه لم يستطع ان يملأ حياتها فى يوم من الايام، وكانت دائما فى حاجة الى رجل آخر يشبع شبابها المحروم ويعيد الحياة الى الجسد الذى يبرد ويتثلج تحت انفاس هذا الفأر الذى ينساب بين ذراعيها..

اذن، ماذا تريد منه؟

انها لا تدرى، لانها لا تستطيع ان تغوص الى قرارة نفسها، أو هى تخاف ان تواجه نفسها حتى لا ترى شياطين الجشع والانانية تتراقص فوق اعصابها، وحتى لا ترى بشاعة ما تريد..

انها تريد ان تمتلكه حتى لو لم تحبه..

تريد ان تمتلكه حتى لو خانته مع رجل آخر..

تريد ان تستعبده.. ان تكون اقوى منه الى حد ان يثير شفقتها عليه، ويحرك فيها طيبة قلبها، فتزهو بهذه الشفقة وتختال بطيبة قلبها..

وهى تحس ان نجاحه فى الحياة قد جعله اقوى منها، وانه لم يعد فى حاجة الى شفقتها ولا الى طيبتها، تحس انه قد أصبح المالك وهى المملوك..

وهى لن تصدق هذه الكلمات التى يقولها لها ليبقيها الى

جانبه.. لقد بدأ يفلت من بين اصابعها، وبدأ يعتبرها خطيئة في حياته، وبدأ يداريها عن الناس، وبدأ يخجل منها امام المجتمع.. كل ذلك لانه أصبح عضوا بارزا في الشركات، فماذا يمكن ان يحدث لو أصبح وزيرا؟!

لا.. لن يصبح وزيرا!

ولن يبقى عضوا بارزا في الشركات!

يجب ان تحطمه وان تعيده كومة من العظام المهملة تذوب في حبها، حتى تشعر بحاجته اليها، وحتى يثير شفقتها وطيبة قلبها..

لم كل ذلك، وهي لا تحبه؟

انها غريزة التملك.. الغريزة البشعة السوداء!

وخيل اليها انها قررت شيئا!

ثم اغمضت عينيها تحاول ان تنام وقد جثم فوق صدرها كابوس تمتد منه ايد ضخمة متوحشة تمزق لحمها، فتحاول ان تصرخ فيختنق الصراخ في حلقها..



واستيقظت في اليوم التالي مصفرة الوجه وقد ثقلت جفونها حتى لم تعد تقوى على حمل رموش عينيها..

وكان قد سبقها الى مائدة الافطار، وكان اسوأ منها حالا.. كان الليل قد ترك حول عينيه سواده، وامتص الأرق وجهه حتى لم يعد فيه إلا عظام..

وابتسمت ابتسامة باهتة، وقالت في صوت خافت:

انى آسفة.. لقد أخطأت ليلة أمس!!.

وأشرق وجهه مرة اخرى كأنه اضىء بزر كهربائى، وقام وامسك بكتفيها وابتسامته تكاد تبتلع وجهه، وصاح فى مرح:

صحيح.. كان هذا آخر ما انتظره منك هذا الصباح.. انها أجمل تحية الصباح تلقيتها فى حياتى..

وانحنى عليها يقبلها فأعطته خدا باردا يطوف عليه بشفتيه، وقالت وصوتها لا يزال خافتا:

لقد فكرت طويلا.. وقررت الا ابدو معك فى المجتمعات فهذا خير لك ولعملك.. وسأكتفى بانتظارك دائما!

وضمها الى صدره فى حنان عجيب، وقال وهو يمسح وجهه بشعرها كأنه مؤمن يمسح يده فى استار الكعبة:

لن تحتاجى لانتظارى، فسأكون دائما بجانبك.. لن يكون لهذه المجتمعات منى سوى ساعات تغتصبها رغما عنى..

قالت فى دلال وهى تعبث باصابعها فى ازرار سترته:

ولكن لى شرط واحد..

كل الشروط لك..

ان تصحبنى الى السينما كل اسبوع..

سأصحبك الى كل مكان فى الدنيا، سأخلق عالما لنا وحدنا نحن الاثنين..

لقد قلت لى امس اننى انا الرب الذى يخلق لا انت؟

انت الرب الذى يأمر، فاخلق له..

اذن انت جبريل!

وضحكا كثيرا وتناولا فطورهما فى مرح، ثم هم بمغادرة الدار فاستوقفته وانحنت على جبينه تقبله، وقالت وهى لا تزال

تلفه بذراعيها:

هل يستطيع الرب ان يأمر الآن؟

مري..

انى فى حاجة الى فراء شاهدته امس عند «سبستفارس» ولم استطع من ساعتها ان انساه..

سيكون لك..

انه «فيزون» واخشى ان يكون ثمنه خمسمائة جنيه!

وتوقف قليلا عن الرد، وضاقت ابتسامته.. ثم قال وقد فقد بعض حماسه:

كل ما استطيعه فهو لك..

وخرج..

ولم تكن المسائل المالية موضوع نقاش بينهما ابدا.. كانت تعلم مقدار دخله، وكان لايخفى عنها قرشا يصل الى جيبه، وكانت دائما تأخذ ما تريد وتترك له الباقى ليحتفظ به فى رصيده، حتى استطاع بهذا الرصيد ان يشترى الاسهم التى يشترط ان يملكها ليكون عضوا فى مجالس ادارة الشركات.. كانت تأخذ دائما ما تريد، ولكنها لم ترد ابدا خمسمائة جنيه مرة واحدة، ولم ترد ابدا فراء، وانما كانت معتدلة فى مطالبها، بل انه كان يتهمها احيانا بالتقتير على نفسها لتزيد من رصيده.. فماذا حدث؟

ولم يطل تفكيره.. واعتبرها نزوة من نزوات النساء، واشترى لها الفراء.

ولكنها لم تكن آخر نزوة..

لقد بدأت تثقله بمطالبها ومطالب عائلتها.. مطالب كبيرة مغالى فيها.. وكان يدفع صامتا، ثم بدأ يدفع متبرما. ثم بدأ يعترض، وقال لها يوما فى رجاء:

يجب ان نحسب حساب المستقبل، اننا ننفق كثيرا!

ونظرت فى عينيه برهة ثم اجهشت بالبكاء، وقالت من خلال دموعها:

انك الآن تبخل علىّ.. انك لم تعد تحبنى.. لم اعد ربك الذى يأمرك فتخلق له..

اننى لا ابخل، ولكنى لا اريد ان اسرف..

ورفعت رأسها متحدية:

انك تحسب حساب المستقبل وتنسى الماضى.. تنسى الايام التى كنت ابيع فيها قطعا من مصاغى لادفع لك اجر الطبيب وثمن الدواء.. لقد كنت مسرفة ايامها ولم تعترض على اسرافى!

انى لم انس شيئا.. وقد قلت لك ان كل ما املك هو لك والمستقبل الذى افكر فيه هو مستقبلنا نحن الاثنين..

ان المستقبل لك وحدك، اما أنا فليس لى منك الا يومى!

وسكت..

وبدأ يدفع من جديد..

وكانت قد امتنعت عن الاختلاط باصدقائه وبالشخصيات الكبيرة التى تتصل بعمله، كما امتنعت عن دعوتهم الى المنزل، حتى تصون وعدها له بألا تبدو معه فى المجتمعات، ولكنها بدأت تجمع لنفسها اصدقاء جددا.. فكان يعود الى البيت ليجد

فيه شبانا وفتيات من الارمن واليونانيين والطليان، وليس بينهم شخصية ذات قيمة.. بل كلهم من الافاقين نهازى الفرص الذين ينتشرون فى النوادى الكبرى فى انتظار صيد جديد.. وكانت تقدمهم اليه فيجلس بينهم لا يتمتع بهم ولا يتمتعون به، ويشمئز منهم ويشمئزون منه وان داروا اشمئزازهم وراء ستار كثيف من النفاق..

وكانت لا تصحبه الى الحفلات التى يدعى اليها، ولكنها كانت تقيم فى البيت حفلات تدعو اليها هؤلاء الافاقين، حفلا فاجرة خليعة، حاول ان يجاريها فلم يستطع، وحاول ان يسكت عليها فلم يستطع ايضا..

وبدأت تشرب كثيرا وتدفعه الى الشرب معها.. ولكنه لم يكن يزيد ابدا عن كأس أوكأسين.. لقد افرط فى الشراب يوما عندما كان يشعر بالنقص الذى ابتلاه به الله، عندما كان يشعر بانه قزم مشوه لا امل له فيها، وكان ايامها يشرب لينتحر، اما اليوم فهو لا يريد ان ينتحر، فقد اصبحت له، وامامه مستقبل صمم على ان يصل فيه الى نهايته، فلماذا ينتحر؟

وأصبحت تشرب وحدها..

وعندما تشرب تسلط عليه سياطا من عذاب.. كانت تتهكم عليه، ثم بدأت تعيره بشكله وقصره ورأسه الكبير ووجهه النحيل وشفتيه الباهتتين.

وكان فى الماضى يكفى ان ينظر فى المرآة ليكفر بالله ويقرر ان يقتل هذا القزم الذى يتعذب، ولكنه اليوم وهى تعايره وتتهكم عليه لا يكفر بالله ولا يفكر فى قتل نفسه.. وقد يتألم ولكن ليس الى الحد الذى يقضى عليه.. انه الآن يشعر بقوة

تعينه على نقصه، قوة يستمدها من نجاحه فى عمله، ومن المجد الذى وصل اليه، ومن المستقبل الذى ينتظره.. انه يريد ان يصبح وزيرا أو شيئا كالوزير، ويومها سيصبح اقوى من جميع العمالقة، واقوى من جميع الاقوياء، وسيتحرر نهائيا من هذا الضعف الذى يشعر به كلما خاف ان يفقد المرأة التى يحبها..

وكانت قد حرمته من جسدها، لم يعد له حق فى فراشها، وكان يكفى ان يقترب منها فتصرخ فى وجهه ان كانت سكرى حتى لو كان يسعى الى مجرد قبلة، وتبعده فى تبرم ان لم تكن سكرى، حتى لو لم يرد أكثر من ضمها الى صدره الذى مزقه الشوق..

وكانت فى كل ذلك تراقبه وهو يتحطم ويعود كومة من العظام تستجدى شفقتها وطيبة قلبها..

ولكنه لم يتحطم، بل اخذ يزداد بعدا عنها. لم يعد يحدثها عن يومه، ولا عن عمله، ولا عن الناس الذين يصادفهم ولم يعد يطلعها على دخله والارباح التى يجنيها من شركاته.. أصبحا غريبين فى البيت لا يربط بينهما سوى الخيط الرفيع الذى يفصل بين الحب وغريزة التملك..

كل ما شعر به، هو انه يعيش فى دوار مستمر يصاحبه فى ليله ونهاره، وقد كاد هذا الدوار يؤثر على عمله وعلى مستقبله، ويدفع به الى الجنون، ولكنه قاوم.. وقاوم بشدة وبقسوة على نفسه..

واشتد به الدوار يوما عندما دخل البيت فوجد بين اصدقائها هذا الشاب الوسيم المتسق العضلات الذى شاهدها

معه مرة ـ قبل ان تعرفه ـ وهى تكاد تنطبع فوق صدره.. والذى اثار فيه شعوره بالنقص الى حد ان حطم المرآة التى رأى فيها نفسه..

ثم عاد الدوار يشتد عندما ذهب معها الى السينما فوجد هذا الشاب مدعوا معهما.. ثم وجده معهما فى ساعة الغداء..

لقد تحمل الكثير.. انه يكاد يجن.. يكاد يتحطم..

وجمع اعصابه ووضعها فى قبضته، وقال لها فى هدوء، وقد انفردا لحظات قبل ان يذهب كل منهما الى فراشه:

لى رجاء..

قل..

هذا الشاب، انى لا اطيقه..

انه صديقى..

لن يضيرك ان تستغنى عن صداقته..

وصرخت..

لا تكن انانيا الى هذا الحد.. هل طلبت منك ان تستغنى عن اصدقائك؟.. لقد تركتهم جميعا لاجلك..

انى فى حاجة الى أصدقائى، ولكنك لست فى حاجة الى هذا الشاب!

وابتسمت ابتسامة ذات معنى وقالت وهى تغمز بعينيها:

من ادراك انى لست فى حاجة اليه!

وفهم، وتحامل على نفسه، وقال وهو لا يزال محتفظا بهدوئه:

لقد اعتقدت يوما انى استطيع ان اغنيك عن كل الاصدقاء.

وأنا ايضا اعتقدت انى اغنيتك عن اصدقائك، بل وعن مستقبلك..

ارجوك، لا تقطعى كل الخيوط.. انى لا ازال احبك..

وهل منعتك من حبى!

لم يكن هذا هو حال حبنا ..

لا تقل حبنا ، قل «حبى» فقط!

واسقط رأسه فوق صدره، ودلف الى حجرته وهو يجر قدميه فى يأس دون ان يحييها تحية المساء..

وعرف ليلتها انه لم يعد امامه الا طريقان: اما ان يحطم نفسه ومستقبله ويجرى وراء حبه، واما أن يحطم حبه ويجرى وراء نفسه ومستقبله..

(٨)

هل يحطم حبه فى سبيل نفسه وفى سبيل مستقبله؟
هل يهجرها؟
وهل يستطيع ان يعيش بدونها؟

هل يترك كل هذه الدنيا التى اقامتها له ليدور فى الفضاء مشردا شقيا وبين جنبيه قلب محطم، وبين شفتيه انفاس ممزقة. وبين عينيه اطياف من ذكرياته تقضّ مضجعه وتمشى فوق اعصابه؟

هل يستطيع ان يقف على قدميه دون ان يستند عليها، هل يظل محتفظا بثقته فى نفسه يوم يجد نفسه وحيدا بعيدا عنها، هل يظل ناسيا انه قزم نحيل كبير الرأس بارز العظام، يوم تتركه وحده بين عيون النساء ليرى ما فيها من رثاء على حالة؟

ام يبقى بجانبها ويتركها تحطمه وتحطم مستقبله وينقاد لنزواتها حتى يعود كومة من العظام المريضة لا امل له الا فى شفقتها عليه، وفى قبلة تحنو عليه بها، وفى ابتسامة تضمه بين ثناياها..

هل يبيع هذا المستقبل الزاهر الذى كاد ان يصل الى قمته، من اجل حبه، هل يبيع هذا النفوذ الواسع وهذا المجتمع الذى يحتفى به وهذه الشركات الرابحة فى سبيل بقائه بجانبها؟

وقد ظل امسيات طويلة لا يدرى.. امسيات يتقلب فيها على اشواك السهد والارق يكاد يقسم خلالها ان يهجر البيت الذى يتعذب فيه، فاذا به يتذكر لحظات الحنان التى ضمته فيها بين احضانها، ويتذكر جسدها الشاب الذى يضمه فراش فى الحجرة المجاورة ولا يفصله عنه الا هذا الجدار، ويتذكر الايام التى قضتها تنفخ فيه الروح وتملأه بالثقة فى نفسه وتدفعه نحو المستقبل وتجمع من حوله الاصدقاء الذين نفعوه وارشدوه الى الطريق.. يتذكر كل ذلك فيكاد يقسم ان يبقى بجانبها العمر كله ولو طالبته بنبضات قلبه واستنزفت منه آخر قطرة فى دمائه.. ولكنه يعود فيتذكر الحفلات الماجنة التى تقيمها فى بيته والشاب الوسيم المتسق العضلات الذى تلتصق حتى تكاد تنطبع على صدره، والمطالب المالية المفتعلة التى اخذت اخيرا تثقل بها عليه حتى كادت تأتى على آخر قرش فى رصيده، ويتذكر همسات المجتمع حولهما، وتلميحات اصدقائه الكبار أكثر من مرة حول علاقته بها، ويتذكر كيف تحاول ان تنزعه من عمله وتنزله من المكانة التى ارتفع إليها لتبقيه تحت قدميها، ويتذكر كيف تعودت ان تهينه، وان تحتقره وان تعيره بشكله وضعفه، وان تصفعه بتصرفاتها الشاذة.. يتذكر كل ذلك فتثور فى نفسه زوبعة من الحقد والرغبة فى الانتقام ويتصور نفسه يقتلها، ويحرق جثتها، بل يتمادى فى خياله الاسود حتى يتصور سكينا فى يده يقطع بها مواضع الحسن من جسدها

حتى لا تكون لرجل آخر، ويتصور بعد ذلك كيف يخفى جريمته وكيف يضلل البوليس والمحققين، ثم ترتفع قبضته الهزيلة ويهوى بها على الوسادة وكأنه يطعن صدرها، أو كأنه يطعن خياله، أو كأنه يطعن الدنيا لينتقم من عذابه فيها.. ثم يفيق من لوثته ويستجمع ارادته ويقرر من جديد ان يهجرها ويضحى بحبه فى سبيل الابقاء على كيانه.

وامتصت هذه الامسيات المسهدة دماءه، فبدا أكثر اصفرارا، واشد هزالا، والتصق جلده فوق عظامه حتى أصبح هيكلا فارغا منقرا، وكبر حجم رأسه حتى لم يعد عنقه المفتول يقوى على حمله، وانكمش وجهه حتى سقطت نظارته فوق انفه فبدا كأحد كتبة «العرضحال» المصدورين الذين يقفون على ابواب المحاكم الارياف، لا يميزه عنهم الا عينان يقظتان هستيريتان لا تستريحان ابدا ولا تستقران فى اتجاه واحد.

وكان يذهب إلى عمله ويجلس إلى مكتبه، فلا يحس بتعب. فقد كان عذابه اقوى من التعب، ولكنه كان يستجمع ارادته حتى يحول هذا العذاب الى عمل والى ارقام يدرسها ويمحصها ثم يحولها الى نتائج باهرة مريحة.

ان هذا العذاب والألم استطاع ان يعتصر عبقرية جديدة فى عالم الاقتصاد وفى دنيا الشركات، أصبحت حديث الناس، وحديث مصر، وحديث العالم اجمع، وارتفعت به الى قمة لم يكن يحلم بها، ولم يحلم بها شاب مصرى فى سنة.

وكان كلما اشتد عذابه، وطالت به الامسيات المسهدة، ازداد انكبابا على عمله محاولا ان ينسى.. وقد اكتشف انه يحب عمله، وان هذا الحب هو الشيء الوحيد الذى يستطيع ان يقاوم

به المرأة التى هلك فى حبها.

وكان يعرف مدى الخطوات الواسعة التى يخطوها ويعرف انه اصبح يجلس على عرش عبقرى من عروش الاقتصاد والسياسة، لكنه كان يعرف ولا يحس، ولم يستطع ان يزهو بهذا المجد الذى وصل إليه، ولم يشعر بالسعادة التى ينتشى بها كل شاب ناجح موفق، ولم يدر انه أصبح محسودا من الناس، ولم يشعر بالتعالى ولا بالعظمة التى يشعر بها المحسودون.

كان دائما معذبا يقطع صدره الألم، وكان يعمل وينهك ذهنه، لا للمجد ولا للنجاح بل فقط لينسى عذابه وهذا الألم. وكان يزداد نفورا من الناس، وكلما ازداد نفورا سعوا وراءه وازدادوا تقربا منه.. وكان يزداد تعمقا فى الصمت، وكلما تعمق فى صمته كلما توهم الناس انه يخفى جوانب شاسعة من عبقريته..

وأصبح ترشيحه للوزارة بعد ذلك امرا طبيعيا، وأصبح ضمه إلى كل هيئة رسمية تتولى امرا خطيرا من شئون الدولة امرا محتما، بل ان من الناس من كاد يرشحه ـ رغم صغر سنه ـ رئيسا للوزارة.

وكان يعود إلى البيت فيجدها دائما فى انتظاره.

كانت تستقبله دائما فى برود، ودائما تحييه تحية فاترة مبتورة، ودائما تلقى اليه بوجه عابس، فاذا ابتسمت له تعمدت ان تكون ابتسامة هزء وزراية.

ولكنها كانت دائما تنتظره.. بل لم يكن لها شاغل الا انتظاره، ولم تكن تهدأ وتستقر الا عندما يعود..

كان كلما خرج احست انها فقدته، فتقضى ساعات تحاول ان تلهو فيغلب حقدها لهوها، وتحاول ان تغرق نفسها فى كأس فينسكب الكأس غيظا يحرق صدرها، وتحاول ان تنسى بين احضان رجل آخر فاذا بزوابع سوداء تلف رأسها وتطير به بعيدا عن جسدها.

انها تحقد عليه.. تغتاظ منه.. وتتمنى لو فتتت عظامه الهشة بين اصابعها وداستها باقدامها.

كيف يتركها.. كيف يتعالى عليها.. كيف لا يشركها فى هذا المجد الذى وصل إليه.. انه صنيعة يدها.. انه ملكها..

فاذا ما عاد صبت غيظها وحقدها فى سياط تطلقها عليه.. فتحاول دائما ان تقنعه بأنه حقير، وانه قزم، وانه اتفه من ان يصل إليها.. ثم تحاول ان تعذبه بفتنتها فتكشف له عن جسد تحرمه منه، وتذكره بحنان لم يعد له منه نصيب، وتشعل لهب الغيرة فى صدره عندما تدعو فى بيته رجالا تميل عليهم وتضحك معهم وتتبادل فى صحبتهم رشفات الكؤوس.

ولم تكن تتمنى الا ان تراه تحت قدميها ذليلا مسكينا يسألها الرحمة ويستثير شفقتها، ويحرك فيها طيبة قلبها..

ولكنه لم يفعل..

لم يقع تحت اقدامها..

كانت ترى سطور العذاب على وجهه وترى الجهد الذى يبذله فى مقاومتها ومقاومة عذابه.

وكانت تنتظر اليوم الذى تنهار فيه هذه المقاومة..

ولم يأت هذا اليوم..

وانما عاد فى احدى الليالى، وكانت تقيم حفلة من حفلاتها الماجنة، وفتح الباب بمفتاحه الخاص، واطل برأسه فاستقبلته رائحة الدخان المشبع بابخرة الخمر، ودار بعينيه، فوجدها بين احضان الشاب الوسيم المتسق العضلات وقد اخفت شفتيها بين شفتيه..

ولم يدخل.. وسحب رأسه من بين ضلفتى الباب، وعاد الى الطريق.

وقال لها بعض مدعويها:

لقد جاء الاستاذ ولم يدخل..

وابتسمت ابتسامة الواثق وقالت فى تأكيد:

سيعود..

ولكنه لم يعد..

وانتهت الحفلة، وانصرف المدعوون وانصرف معهم الشاب الوسيم المتسق العضلات، ولكن الاستاذ لم يعد.

وجلست وحيدة والكأس فى يدها..

انها الليلة الأولى التى لا يعود فيها..

المرة الأولى التى يفلت فيها من بين اصابعها..

وحملقت فى الكأس تستعرض على صفحتها صورا من ايامها معه.. ايام كان يتبعها كالكلب الذليل وفى عينيه عبادة صامتة.. ويوم ناولته الكأس الأولى ليغرق نفسه فيها.. ويوم استبدت به الخمر فخرج يترنح حتى صدمته سيارة.. ويوم ذهبت إليه فى المستشفى ليبوح لها بحبه فخفق قلبها شفقة عليه ورثاء له.. ثم كيف تمادت فى شفقتها حتى تركته يقبلها

ويلصق شفتيه الباهتتين فوق شفتيها، ثم تمادت اكثر فحملته فوق جسدها وتركته ينساب بين ذراعيها كفأر جائع.. ثم استعبدتها الشفقة فعاشت معه وتركت الدنيا كلها من أجله لترد له الحياة وتنفخ فيه الروح وتدفعه فى عمله الى قمة النجاح.. ثم كيف بدأ يرتفع عنها، وبدأ يدارى حبه لها ويخجل منه امام الناس ويعتبره خطيئة لا يستطيع ان يواجه بها المجتمع.. ثم كيف حاولت بعد ذلك ان تحطمه ليعود ذليلا ضعيفا يرجو حنانها ويستثير طيبة قلبها، فتملكه بهذا الحنان وتشتريه بهذه الطيبة.

وانسابت دموعها فى صمت فوق وجنتيها، ثم انحدرت حتى سقطت فى الكأس.. فاهتزت صور الماضى فوق صفحتها.

لماذا لا تتركه يذهب فتستريح منه؟!

ولكن لا.. انه ثمن هذه الايام التى قضتها معه، انه ثمن هذا النجاح الذى خلقته منه، انه ثمن هذا العذاب الذى تعذبته عندما كان يكتم شفتيها بشفتيه الكريهتين، انه ثمن من حقها ان تتقاضاه ومن حقها ان يكون لها وحدها، ومن حقها ان تضعه دائما فى رصيدها حتى ولو ضيعته.

واجتاحتها ثورة، وشربت الكأس، وشربت دموعها فيها..

اين هو الآن؟

وتمنت لو انه مات حتى تبكيه شفقة عليه، وتمنت لو ان سيارة صدمته ونقل إلى المستشفى حتى يحتاج إليها من جديد.

ولم تنم..

وفى الصباح دقت التليفون فى مكتبه فرد عليها، وقالت بعد

برهة صمت:

حسبتك مت..

انى اموت كل يوم وكل ساعة اقضيها بعيدا عنك..

لماذا لم تعد الى دنيا الاحياء؟

لم يعد لى امل فيها.. لقد قررت الانتحار!

سأرسل زهورا إلى قبرك!

ارجو قبل ان ترسلى الزهور ان تبعثى باكفانى.. اقصد ثيابى!

ستصلك..

والقت سماعة التليفون فى وجهه، وصرخت بينها وبين نفسها ماذا يريد هذا الوغد.. هل كان ينتظر ان اتوسل إليه حتى يعود.. هذا الحقير.. هذا القزم؟!

واندفعت الى غرفته، وفتحت خزانته واخرجت ثيابه، ثم اخذت تمزقها قطعة قطعة.. تمزقها بيديها واسنانها، وكأنها تمزق الشفقة التى دفعتها إليه، وتمزق طيبة القلب التى جمعتها به فى بيت واحد، وتمزقه هو.. القزم الذى استطاعت الشفقة والطيبة ان تخلق منه عملاقا يتمرد عليها.

وجمعت الثياب الممزقة فى حقيبة وارسلتها إليه فى مكتبه مع الخادم..

واستراحت.. وخيل إليها انها استراحت من عمرها كله.

ودق جرس التليفون فى بيتها، وكان يتكلم فى صوت ضعيف تكاد تطغى عليه نبضات قلبه:

يجب ان اقول لك انى لازلت مسئولا عنك.. ستصلك النقود

التى تريدينها و...

وقاطعته صارخة:

يا كلب.. انا التى جعلت لك هذه النقود، ولن اقبلها منك، انها صدقة منى اليك..

ارجو ان تفهميني.. انى احبك.. وانت تعلمين!

انى لا اريد حبك ولا اريدك.. لقد كنت اشفق عليك ولم تعد تستحق حتى الشفقة!

لقد كنت لى..

انت الذى كنت لى وقد صنعتك انسانا بعد ان كنت مسخا.. ولم أكن لك ابدا.. انت واهم.. لن تكون لك ابدا امرأة!

والقت فى وجهه سماعة التليفون مرة اخرى..

وتركته والسماعة معلقة فى يده وقد جف كل شىء فيه حتى دموعه.. وامتلأت أذناه بطنين مخيف يردد على مسمعيه: لن تكون لك أبدا امرأة.

وأحس بنفسه يهوى.. ثم يهوى حتى يصل الى الحضيض.. أحس بمكتبه الفخم يختفى من امام عينيه، واحس بالاوراق تختلط ببعضها حتى تصبح خيوطا سوداء تلتف حول عنقه.

وأحس كأنه فى ذلك اليوم الذى خرج فيه مترنحا فصدمته سيارة وألقت به فى الطين..

وسقطت السماعة من يده.. وسقط رأسه فوق صدره.. وسقطت جفونه فوق عينيه، وسقطت الحياة من فوق وجهه.

ودخل سكرتيره فارتاع لمنظره وصرخ وهو يهزه من كتفه:

- يا استاذ.. ياأستاذ..

وفتح جفنيه فى بطء وكأنه يصحو داخل قبر، وقال فى ضعف:

- لا شيء.. انى متعب.. سأعود لأستريح..

واستراح.. اياما طويلة.. استراح على فراش من العذاب.. ثم عاد الى عمله.. وكان يعمل وكأنه يحاول الانتحار.. لم يكن يكف عن العمل.. وكان يزداد نحولا واصفرارا.. وكان ينفر دائما من الناس، ويصمت دائما عن الحديث.. ولم يستطيع ان يرفع عينيه الى امرأة.

وعرف عنه انه عبقرى شاذ..

ولم يعرف عنه احد أنه كتلة حية من العذاب.. ولن يصدق احد انه يتعذب من اجل امرأة احبها وضن بنفسه وكرامته ومستقبله عليها، امرأة لم تستطع ان تسعده لأنه لم تحبه وانما فقط ارادت ان تمتلكه، ولن يصدق احد انه فى ليال كثيرة يشتد به العذاب فيسحب اليه حقيبة كبيرة ويخرج منها قطعا من الثياب الممزقة يبكى فوقها.

ان الناس كلها تعرفه.. وترى صورته وتقرأ ابحاثه فى الصحف.. وسيصبح اكبر مما هو، وسيكون حتما وزيرا.. ولكن احدا لا يدرى انه يبيع كل ذلك لو وجد امرأة تحبه، يبيعه ليصبح رجلا كاملا وسيما متسق العضلات يستحق الحب..

اما هى..

فقد عادت الى عبده بك اياما ولكنها لم تحتمله ولم يحتملها.. فتركته الى رجل آخر.. والى آخر.. اخذت تهوى من رجل الى رجل حتى اصبحت محترفة رجال لا تبقى على واحد منهم اكثر من ليلة..

لقد فقدت قلبها، وفقدت اعصابها، وفقدت اتزانها.. انها تريد رجلا تمتلكه، ولن تكون ابدا لرجل يمتلكها ما دامت لا تحبه.. وهي تريد ان تمتلك هذا الرجل بالذات الذي صنعته من شفقتها وطيبتها وجعلت منه عملاقا افلت من يديها..

انها لا تزال تنتظر اليوم الذي يعود اليها فيه زاحفا على ركبتيه.. ولا تزال تمزق كل جريدة ترى فيها صورته.. ولا تزال تتمنى له ان يموت قبل ان يكون لغيرها..

انها تتعذب، ولا تدرى سر عذابها.

كل منهما لا يدرى..

لأن احدا منهما لم يستطع ان يرى الخيط الرفيع.. الرفيع جدا.. الذى يفصل بين الحب وغريزة التملك..

عاطفة الحب التي تسمو بك مرتبة الملائكة..

وغريزة التملك التي تنحط بك الى مرتبة الحيوان..

الحب الذى يدفعك الى ان تضحى بنفسك فى سبيل من تحب، وغريزة التملك التى تدفعك الى ان تضحى بمن تحب فى سبيل نفسك.

الحب الذى يدفعك لأن تغار على من تحب.. على سعادته وراحته وسلامته..

والتملك الذى يدفعك لأن تغار لنفسك.. لسعادتك وراحتك وسلامتك..

الحب.. العطاء، السخاء..

والتملك.. الأخذ، الأنانية..

والناس كلهم لا يرون هذا الخيط الرفيع.. وإلا لعرفوا لماذا

تخون هذه الزوجة التى تبدو سعيدة بزوجها وبيتها واولادها.. لماذا تخون زوجها وقد وفر لها الشباب والمركز الاجتماعى وضمن لها المستقبل؟!..

ولماذا يخون هذا الزوج زوجته.. وقد وفرت له الشباب والجمال والبيت السعيد وحسده عليها الجميع؟!..

ولماذا يحرص الزوج الخائن على زوجته الى حد ان يقتلها، ولماذا تحرص الزوجة الخائنة على زوجها الى حد ان تقتله؟!..

ثم لماذا فى هذه القصة يتعذب الفتى وقد كان يستطيع ان يكون بجانب المرأة التى احبها لو ضحى بالمجتمع وببعض مستقبله فى سبيلها، ولماذا تتعذب المرأة وكانت تستطيع ان تبقى له او ضحت بأنانيتها فى سبيل مستقبله وسعادته..

انها غريزة التملك..

الغريزة البشعة التى يفصل بينها وبين عاطفة الحب السامية، خيط رفيع.. رفيع جدا!!..

«انتهت»

رقم الايداع: ٩٧/١٠٤٢٤
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-08-0671-4